أسرار الحكمة

في مخلوقات الله

للإمام حجة الإسلام
أبي حامد الغزالي

دار ميرزا
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان



أسرار الحكمة

في مخلوقات الله



أسرار الحكمة

في مخلوقات الله

للامام حجة الاسلام
ابي حامد الغزالي

تحقيق
الاستاذ علي عباس خريس

دار ميرزا
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

الغزالي (١٠٥٩ م ـ ١١١١ م) (٤٥٠ هـ ـ ٥٠٥هـ)

فقيه ومتكلم وفيلسوف ومصلح ديني وإجتماعي، وصاحب رسالة روحية كان لها أثرها في الحياة الإسلامية.

ولد حجة الإسلام، الإمام أبو حامد محمد الغزالي في ضاحية غزالة بمدينة طوس من أعمال خراسان.

كان والده ـ إلى جانب إشتغاله بغزل الصوف ـ يقوم بخدمة رجال الدين والفقهاء في مجالسهم، وكانت أقصى أمانيه أن يرى أحد ولديه (محمد وأحمد) خطيباً وعالماً. ولكن الدهر لم يمهله ليحقق أمنيته، فمات والولدان بعد قاصران، فتعهدهما بالتربية والعلوم الأولى صديق صوفي لأبيهما.

درس محمد العلوم الأولى في بلدته، ثمّ إنتقل إلى جرجان سنة (٤٦٥ هـ ـ ١٠٧٣ م) طلباً للتزيد والتعمق. رحل إلى نيسابور سنة (٤٧٠ هـ ـ ١٠٧٨ م) وهي من مدن العلم المعروفة آنذاك، فاتصل بإمام الحرمين أبي المعالي الجويني = علم عصره في التوحيد والإلمام بمذاهب الأشعرية وطرق الجدل والأصول والمنطق = فدرس الغزالي عليه كل هذه العلوم والمذاهب، كما درس علوم الفلاسفة وبخاصة الفارابي وإبن سينا، وعلوم الباطنية ويسمون بأهل

التعليم لقولهم بضرورة معلم معصوم.

إنتقل إلى بغداد بعد موت إستاذه الجويني (٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥ م) فاتصل بالوزير السلجوقي نظام الملك طوال خمس سنوات ظهر خلالها تفوقه في الكلام والفقه والعلوم الشرعية أثناء مناظراته الأئمة والمفكرين، فعينه الوزير أستاذاً مشرفاً على النظامية[1] في بغداد (٤٨٤ هـ ـ ١٠٩١ م) وهي أشهر المدارس في عصرها.

وقع الغزالي في المرحلة الأولى بأزمة من الشّك الذي كانت خطوطه بدأت تتكون في نيسابور، ولكنه إجتازها بعد شهرين من القلق كان فيهما على مذهب السفسطة. إهتمّ بالفلسفة أثناء بحثه عن الحقيقة وألف كتابيه: مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة.

إعتزل التدريس سنة (٤٨٨ هـ ـ ١٠٩٥ م) بعد أزمة نفسية عنيفة وصراع شديد تردد فيه بين شهوات الدنيا ودواعي الآخرة، وأخذ بعده بحياة التصوف، فخرج من بغداد إلى الشام، ثم إلى بيت المقدس والحجاز حيث قضى سنوات في الزهد والعبادة على طريقة المتصوفين.

حنّ إلى مسقط رأسه خاصة بعد دعوات من تلامذته، فعاد إلى طوس وعزم على الدعوة إلى الإصلاح الديني فقام يؤلف كتابه «إحياء علوم الدين». ولكنه عاد إلى التدريس في نظامية نيسابور مدة سنتين(٤٩٩و٥٠٠ هـ ـ ١١٠٥و١١٠٦ م) بناء على دعوة ملحة من السلطان.

إنصرف بعد ذلك إلى التصوف في مسقط رأسه طوس إلى أن وافته منيته سنة (٥٠٥ هـ ـ ١١١١ م).

آثاره:

له مصنفات كثيرة في شتى فروع النشاط الفكريّ أهمها:

---

(١) النظاميات هي مدارس عليا أنشأها نظام الملك وزير السلاجقة لتبثّ السّنة والأشعرية وتؤيد السلجوقيين ـ قبالة الأزهر في القاهرة الذي كان يدعو للفاطميين وبيت تعاليم الشيعة. من أشهر النظاميات: نظامية بغداد ونظامية نيسابور.

أ ـ في التصوف والأخلاق:

ميزان العمل، إحياء علوم الدين، الأدب في الدين، آداب الصوفية، أيها الولد،جواهر القرآن، معراج السكاكين، منهاج العابدين، مشكاة الأنوار.

ب ـ في العقائد والفقه والأصول:

عقيدة أهل السنة، القسطاس المستقيم، الإقتصاد في الإعتقاد، إلجام العوام عن علم الكلام، الرسالة القدسية، المستظهري (فضائح الباطنية) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

ج ـ في الفسلفة والمنطق:

مقاصد الفلاسفة، تهافت الفلاسفة معيار العلم في المنطق.

د ـ ترجمة حياة:

المنقذ من الضلال.

ولا بدّ من لمحة ولو سريعة على بعض مصنفاته المشهورة ليتسنى للقارىء الكريم الدخول في شخص الإمام الغزالي وفكره الديني والفلسفي لما فيه من فائدة جمة وعلم منهجي منير.

إحياء علوم الدين:

هو من أجلّ كتب المواعظ وأعظمها. ألّفه بعد خروجه من الشك، وقد صرف في تأليفه السنوات حتى خاف أصحابه أن يقضي قبل أن يتمه، أظهره بأسلوب سهل واضح، وقسّمه أربعة أقسام وسمى كل قسم ربعاً، وفيه جمع بين العلم والعمل وعرض لما يحقق الكمال ويوصل إلى السعادة. كما حدّد مفهوم الخلق وميز عناصره من معرفة وإرادة وعمل وهيئة راسخة، وأشار إلى ترابطها وضرورة الإنسجام بينها، وكشف عن الأصول التي تنبثق عنها الصفات الأخلاقية ودافع عن إمكانية تهذيب الإخلاق، وبين أثر العادة والمجاهدة والرياضة النفسية في إكتساب الصفات الحميدة.

أما التعليم فيرى أن يبدأ بالقرآن الكريم وأحاديث الأخبار، وحكايات الأبرار، ويحذر من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله.

أيها الولد:

رسالة قصيرة وضعها الغزالي في آخر أيامه ردّاً على طلب أحد تلامذته من المشايخ، وقد شدّد فيها على عنصر العمل حسب ما يفهمه ويحققه التصوف المعتدل، هذا التصوف الذي هو بنظره طريق الحق الوحيد، وينصح فيها الناشئين ألا يطلبوا العلم لنيل أغراض الدنيا والمباهاة على الأقران، بل أن يقصدوا إحياء الشريعة وتهذيب الأخلاق، ويذكرهم بأن العلم بلا عمل جنون والعمل بلا علم لا يكون.

ولقد ترجمتها منظمة اليونسكو إلى الإنكليزية والفرنسية.

المنقذ من الضلال:

كتاب وضعه الغزالي في أواخر حياته وبعد عودته إلى التدريس في نيسابور سنة (٥٠٠ هـ - ١١٠٦ م). وفيه:

أولاً: ردّ الغزالي على أخ له في الدين طلب منه أن يبثه غاية العلوم، والمذاهب وأسرارها.

ثانياً: رغبة الغزالي في حكاية حاله وترجمة حياته الروحية وكيف دخل في الشّك وخرج منه، وما قاساه في سبيل الوصول إلى الحق.

وانتهى فيه إلى أن الله تعالى سبب لوجود العالم، وأنه يخلقه بإرادته وقدرته، وأنه لا توجد إلا علية واحدة هي علية الموجود المريد، وأما علية الطبيعة فهو ينكرها ويردها علاقة زمانية بين شيئين.

علم الكلام:

قال الغزالي: ثمّ إني إبتدأت بعلم الكلام فحصّلته وطالعت كتب المحققين منهم، وصنّفت فيه ما أردت أن أصنّف، فصادفته علماً وافياً بمقصوده غير وافٍ بمقصودي.

وقد إشتغل الغزالي، بالكلام طوال سنوات درساً وتدريساً وتـأليفاً فـانتهى من ذلك إلى أن علم الكـلام يستـطيـع أن يحفظ العقيـدة على إنسان نشأ مسلماً ولقن عقيدته تلقيناً، ولكنه لا يستطيع أن يخلق حقيقة وعلمـاً يقيناً في إنسـان نشأ خـالياً عنهمـا، ولذلـك فهو يـدعو إلى منع الجمهور غير المثقف من الإطلاع على المناقشات الجدلية، ويعتبر في (الرسالـة اللدّنية) أن هـذا العلم كوسيلة دفـاع عن العقيدة هـو أشـرف العلوم وأجلهـا وأكملهـا، وأنـه ضـروري واجب تحصيله على جميـع العقلاء.

وينتهي إلى الـدفاع عن أهـل السُّنة وحـراستها عن تشـويش أهل البدعة.

ميزان العمل:

قـال الغـزالي في كتـابـه ميـزان العمـل: الشكـوك هي المـوصلة إلى الحق، فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينـظر لم يبصر ومن لم يبصـر بقي في العمى والضلال.

فالغزالي إذن يعتنق الشك مذهباً: فهو مقدمة لليقين وطريق إلى الحق، وليس من إيمـان أثبت وأقـوى من ذلـك الـذي يحصـل بعـد التشكيك ويؤدي إليه درس وإستقصاء.

آداب الصوفية:

آثر الغزالي علوم الصوفية فانصرف إلى تحصيل علومهم من مطالعـة كتبهم «للمحاسبي، والجنيد، والشبلي، والبسطامي». فظهر له أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول إليه بالتعليم، بل بالذوق والحـال وتبدل الصفات، لأنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال:

فانتهى إلى أن طريق الصوفية بما فيه من علم وعمل هو الموصل إلى المعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية ولا يتم ذلك إلا بقـطع القلب عن الدنيا والإقبال على الله

مقاصد الفلاسفة:

وفي الفلسفـة رأى الغزالي أن: ردّ مـذهب قبـل فهمـه والإطـلاع على

كنهه، رمي في عماية، وأنه لا يقف على فساد نوع العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم فيه ويزيد عليه، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة.

تهافت الفلاسفة:

وفيه ينتقد مذاهب الفلاسفة ويكفرهم في مسائل قدم العالم، وعلم الله، وحشر الأجساد، ويبدعهم في مسائل أخرى. وهم على إختلاف فرقهم ومذاهبهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام.

الدّهريون: وهم الذين يزعمون أن العالم موجود من نفسه بدون صانع وهؤلاء هم الزنادقة.

الطبيعيون: وهؤلاء أيضاً زنادقة، لأن أصل الإيمان هو: الإيمان باللّه وباليوم الآخر، وهؤلاء آمنوا بالله ولكنهم أنكروا اليوم الآخر.

الآلهيون: مثل (سقراط وأفلاطون وآرسطو) وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية، ولكن بقي من رذائل كفرهم وبدعهم ما يدعو إلى تكفيرهم وتكفير أتباعهم من المتفسلفة المسلمين كإبن سينا والفارابي.

دافع الغزالي عن تعاليم الإسلام بحرارة وإيمان فلقّب: بحجة الإسلام وزين الدين، وعالم العلماء، ووارث الأنبياء.

والغزالي لا ينكر البعث بالأجساد، إذ يرى أنه ممكن يردّ النفس إلى أي بدن من مادة البدن الأول أو من غيره أو مادة إستؤنف خلقها، فالإنسان بنفسه لا ببدنه.

والمعرفة اليقينية عند الغزالي ليست معرفة العوام ولا معرفة المتكلمين والفلاسفة ولكنها معرفة خواص الأولياء تقع في قلوبهم بلا وساطة لأنها نور يقذفه الله تعالى في قلب العبد فإذا هو يعرف الحضرة الآليهة وصفاتها وأفعالها وحكمتها في خلق الدنيا والآخرة وبذلك إستطاع أن يحذق علم الصوفية ويتحقق به عملاً. وأن يدخل كثيراً من تعاليم الصوفية وأذواقهم إلى علم التوحيد السني وأن يجعل من التصوف طريقة في العبادة وطريقاً إل المعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية.

والقلب الذي تحصل فيه هذه المعرفة تحصل له لذة وسعادة أعظم مما

يحصل من معرفة أي شيء آخر دون الله تعالى. وتحصل هذه السعادة عندما يتعرى الإنسان من صفات النقص ويتحلى بصفات الكمال.

وللغزالي آراء مهمّة في تهذيب الأخلاق وتربية الصبيان وآداب المعلمين والمتعلمين تستحق إهتماماً كبيراً لما تتّصف به من عمق النظر وسمو الهدف.

وأخيراً؛ فإن الغزالي على الرغم من نزعته الدينية والصوفية قد إعترف بأنه لا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، وأن أشرف الصفات بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة، كما قال: أن العلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة.

قصدنا بهذه المقدمة الموجزة عن الإمام الغزالي إلقاء نظرة على حياة وأعمال هذا الفيلسوف المسلم، ليتيسّر للقارىء الكريم فهم شخصيته وآرائه، ومنهجه السليم في تقويم الدين، وإظهار عظمة الخالق في مخلوقاته بمنهجية واضحة سليمة.

والله ولي التوفيق



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾(١)، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾(٢).

منذ وجد الإنسان على هذه الأرض وهو مشوق إلى تعرف ما في الكون المحيط به من سنن وخصائص ومخلوقات وكواكب... وكلما أمعن في المعرفة كلما أيقن ضعفه وعجزه أمام عظمة الخالق وقدرته وأسرار مخلوقاته وعلمه الذي جلت نعمة عن الإحصاء والأعداد، خالق اللطف والإرشاد، الموفق بكرمه لطرق السّداد، المخصص هذه الأمة الشريفة بعلم الإسناد.

أحمده أبلغ حمد على نعمه خاصة على نعمة الإسلام وقرآنه العزيز كلام ربنا الذي نزل به الروح الأمين بلسان عربي مبين، وخصّ به أكرم السّابقين واللاحقين محمد عبده ورسوله وحبيبه وخليله خاتم النبيين وسيد المرسلين.

أما بعد، فإن الإشتغال بالعلم أفضل الأعمال وأجلّ الطّاعات وأهمّ أنواع العلوم علوم القرآن الكريم، كلام الله الحكيم.

---

(١) سورة سبأ: الآية (١)

(٢) سورة سبأ: الآية (٢).

لذلك فقد جدّ العلماء وما زالوا منذ أشرقت الأرض بنور سيد المرسلين والقرآن المبين، وهم يتلمسون نواحي العظمة الألهية ويتلمسون قدرته في خلقه، وأرضه وسمائه وحيوانه ونباته و. . . ومع أنهم استطاعوا الوصول إلى شيء من المعرفة، فقد فاتهم الكثير، وأمامهم جهاد طويل وبعد شاسع وطريق لا نهاية له.

وكتاب «أسرار المخلوقات» للإمام الغزالي الذي نقدّمه اليوم للقرّاء الأعزاء بحلة جديدة وشرح موجز عن مؤلفه، إنما هو مرآة ناصعة تعكس عظمة الخالق وقدرته وحكمته في مخلوقاته، وترسّخ اليقين في نفوس عباده، وتقوي الإيمان في قلوب المؤمنين حتى ترى ألسنتهم تنطق وتردّد:

«اللّهم لك الحمد هديتنا لدين الإسلام»

وما في هذا الكتاب يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الآلهي لدقائق الوجود، وأن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين وسيقرب إلى العقل الإنساني فهم ما كان غامضاً مبهماً. وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل. . . مصداقاً لقوله تعالى:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1] .

ويطول بي القول إذا عرضت لما في هذا الكتاب من حسنات وبيّنات، وسيدرك المؤمنون هذا بأنفسهم ويستمتعون بلذة نتاج الفكر عند الغزالي الذي ينشلهم من ظلمة المادة ويبصرهم بنور الإيمان ويوجههم إلى النور الآلهي فيدركون به سعة رحمته تعالى وعظمة مجده وقدرته. مصداقاً لقوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد﴾.

ولم أجد أفضل من كلام سيد الخلق ﷺ لأختم به كلمتي هذه إذ يقول: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل عليّ غضبك أو تحلّ عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

والله ولي التوفيق

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣).

باب
التفكّر في خلق السماء
وفي هذا العالم

قال الله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[1].

وقال تعالى سبحانه:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[2].

اعلم رحمك الله أنك إذا تأملت هذا العالم بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدوة كالبساط

---

(١) سورة ق: الآية (٦)

يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة، التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا به مستبعدين لوقوعه ﴿أفلم ينظروا إلىّ السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها﴾ أي بالمصابيح، ﴿وما لها من فروج﴾. قال مجاهد: يعني: من شقوق، وقال غيره: فتوق، وقال غيره: صدوع، والمعنى متقارب. تفسير ابن كثير.

(٢) سورة الطلاق: الآية (١٢)

في هذه الآية الكريمة يخبرنا الله تعالى عن قدرته التامة وسلطانه العظيم كقوله تعالى. ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾؟ وقوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾. أي سبعاً أيضاً.

والنجوم منصوبة كالمصابيح والجواهر مخزونة كالذخائر وكل شيء من ذلك معد مهيأ لشأنه.

والإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه فضروب النبات لمآربه وأصناف الحيوانات في مصالحه فخلق سبحانه السماء وجعل سبحانه لونها أشد الألوان موافقة للأبصار وتقوية لها ولو كانت أشعة أو أنواراً لأضرت الناظر إليها فإن النظر إلى الخضرة والزرقة موافق للأبصار وتجد النفوس عند رؤية السماء في سعتها نعيماً وراحة لا سيما إذا انفطرت[٣] نجومها وظهر نور قمرها.

والملوك تجعل في سقوف مجالسها من النقش والزينة وما يجد الناظر إليه به راحة وإنشراحاً لكن إذا داوم الناظر إليه نظره وكرره مله وزال عنه ما كان يجده برؤيته من البهجة والإنشراح بخلاف النظر إلى السماء وزينتها فإن الناظر إليها من الملوك فمن دونهم إذا ضجروا من الأسباب المضجرة لهم يلجؤن إلى ما يشرحهم من النظر إلى السماء وسعة الفضاء.

وقد قالت الحكماء بحذوك عندك من الراحة والنعيم في دارك بمقدار ما عندك فيها من السماء.

وفيها أنها حاملة لنجومها المرصعة ولقمرها وبحركتها تسير الكواكب فيهتدي بها أهل الآفاق وفيها طرق لا تزال توجد آثارها من المغرب والمشرق ولا توجد مجرة ولا مقبلة صورة نور وقيل أنها أنجم صغار متكافئة مجتمعة يهتدي بها على السير من ضل وتحير في أي جهة كان فيقصدها وقيل أنها المشار إليها في قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾[٤].

قيل الحبك الطرق وقيل ذات الزينة.

---

(٣) إنفطرت: تمايزت.

(٤) سورة الذاريات: آية (٧).

والسماء ذات الحبك﴾: قال ابن عباس: ذات الجمال والبهاء والحسن والإستواء، وقال الضحاك: الرمل والزرع إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضاً طرائف طرائف، فذلك الحبك.

فهي دلائل واضحة تدل على فاعلها وصنعة محكمة صمدية[٥] تدل على سعة علم باريها وأمور ترتيبها كل يدل على إرادة منشيها فسبحان القادر العالم المريد.

وقيل في النظر إلى السماء عشر فوائد تنقص الهم وتقلل الوسواس وتزيل وهم الخوف وتذكر بالله وتنشر في القلب التعظيم لله وتزيل الفكر الردية وتنفع من مرض السوداء وتسلي المشتاق وتؤنس المحبين وهي قبلة دعاء الداعين.

(٥) صمدية: دائمة ما دام الدهر.



باب في حكمة الشمس

قال الله سبحانه:

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً﴾[1].

اعلم أن الله سبحانه خلق الشمس لأمور لا يستكمل علمها إلا الله وحده فالذي ظهر من حكمته فيها أن جعل حركاتها لإقامة الليل والنهار في جميع أقاليم الأرض.

ولولا ذلك لبطل أمر الدين أو لولاه كيف كان يكون الناس يسعون في معايشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقدهم لذة النور ومنفعته ولولا ضياء نورها ما انتفع بالإبصار ولم تظهر الألوان.

وتأمل غروبها وغيبتها عمن طلعت عليهم وما في ذلك من الحكمة ولولاه لم يكن للخلق هدوء وراحة أبدانهم وخمود حواسهم وانبعاث القوة الهاضمة لهضم طعامهم وتفنيد الغذاء ثم كان الحرص يحملهم. على مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم مكانته في أبدانهم.

---

(١) سورة نوح: الآية (١٦).

أي أن الله سبحانه وتعالى فاوت بين القمر والشمس في الإستنارة فجعل كلًا منها أنموذجاً على حدة ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها

فإن أكثر الحيوانات لولا دخول الليل ما هـدوا ولا قروا من حـرصهم على نيل ما ينتفعون به.

ثم كـانت الأرض تحمي بدوام شـروق الشمس واتصالـه حتى يحترق كـل ما عليها من الحيوانات والنباتات فهي بطلوعها في وقت وغروبها في وقت النور بمنـزلة سراج لأهل بيت يستضاء به وقتـاً ويغيب وقتاً ليهـدوا ويقروا وهي في حـرها بمنـزلة النار يطبخ بها أهل الدار حتى إذا كمل طبيخهم واستغنوا عنهـا أخذهـا من جاورهم وهو يحتاج إليها فينتفع بها حتى إذا قضى حاجته سلمها لآخرين.

فهي أبداً منصرفة في منافع أهل الأرض يتضاد النور والـظلمة على تضـادهما متعاونين متظافرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه وإلى هذه القضية الإشارة بقوله:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٢].

ثم بتقدمها وتأخرها تستقيم الفصول فيستقيم أمر النبات والحيـوان.. ثم انظر في سيرها في فلكها في مدة سنة وهي تطلع كل يوم وتغـرب بسير آخـر سخرهـا لها بتقدير خالقها.

فلولا طلوعهـا وغروبهـا لما اختلف الليـل والنهار ولمـا عرفت المـواقيت ولـو انطبق الظلام على الدوام لكان فيه الهلاك لجميع الخلق فانظر كيف جعل الله الليل سكنـاً ولباسـاً والنهار معـاشاً وانـظر إلى إيلاجـه الليل في النهـار والنهـار في الليـل وإدخاله الزيـادة والنقصان عليهما على الترتيب المخصوص.

وانـظر إلى إمالـة سير الشمس حتى اختلف بسبب ذلـك الصيف والشتاء فـإذا انخفضت من وسط السماء برد الهـواء وظهر الشتـاء وإذا استوت وسط السمـاء اشتد القيظ[٣] وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان فيستقيم بذلك أمر النبات والحيوان بإقـامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة.

---

(٢) سورة القصص: الآية (٧١).

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهمـا، وبين أنـه لو جعـل الليل دائمـاً عليهم سرمـداً إلى يـوم القيـامـة لأضـر ذلـك بهم، ولسئمتـه النفوس.

(٣) القيظ: الحر الشديد

وأما ما في ذلك من المصلحة ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات فيتولد فيها مواد الثمار ويستكثف الهواء فينشأ منه السحاب والمطر وتشتد أبدان الحيوان وتقوى أفعال الطبيعة وفي الربيع تتحرك الطبائع في المواد المتولدة في الشتاء فيطلع النبات بإذن الله وينور الشجر وتهيج أكثر الحيوانات للتناسل وفي الصيف يخمر(٤) الهواء فينضج الثمار وينحل فضول الأبدان ويجف وجه الأرض فتهيأ لما يصلح لذلك من الأعمال وفي الخريف يصفو الهواء فترتفع الأمراض ويمتد الليل فيعمل فيه بعض الأعمال وتحسن فيه الزراعة وكل ذلك يأتي على تدريج وبقدر حتى لا يكون الإنتقال دفعة واحدة إلى غير ذلك مما يطول لو ذكر.

فهذا مما يدلك على تدبير الحكيم العليم وسعة علمه. ثم تفكر في تنقل الشمس في هذه البروج(٥) لإقامة دور السنة وهذا الدور هو الذي يجمع الأزمنة الأربعة الشتاء والصيف والربيع والخريف وتسير فيها على التمام وفي القدر من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار وتنتهي غاياتها ثم تعود فتستأنف وقت السير وبمسيرتها تكمل السنة ويقوم حساب السنة على الصحة على التاريخ بتقدير الحكيم العليم.

تأمل إشراف الشمس على العالم كيف دبره تبارك وتعالى فإنها لو بزغت في موضع واحد لها لا تعدوه لما وصل شعاعها إلا إلى جهة واحدة وخلت عنها جميع الجهات فكانت الجبال والجدران تحجبها عنها فجعلها سبحانه تشرق بطلوعها أول النهار من المشرق فيعم شروقها مايقابلها من جهة المغرب ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد أخرى حتى تنتهي إلى الغرب على ما استتر عنها أول النهار فلا يبقى موضع حتى يأخذ بقسطه منها.

ثم انظر إلى مقدار الليل والنهار كيف وقتها سبحانه على ما فيه صلاح العالم فصار بمقدار لو تجاوزه لأضر بكل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات أما

---

(٤) يخمر الهواء: يحدث من شدة حرارة الشمس تحول كيماوي في الهواء للمواد العضوية، فيحدث تغييراً في الثمار فتنضج.

(٥) البروج: هي مجموع النجوم المعروفة بـ: الدلو - الحوت - الحمل - الثور - الجوزاء - الأسد - السرطان - العذراء - الميزان - العقرب - القوس - والجدي.

وقد تكون البروج هنا كما يراها مجاهد وقتادة منازل النحوم والكواكب السيارة.

الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقر ما دام يجد ضوء النهار وكانت البهائم لا تمسك عن الرعي فيؤل أمرها إلى تلفها وأما النبات فتدوم عليه حرارة الشمس وتوهجها فيجف ويحترق وكذلك الليل لو امتد مقداره أيضاً لكان معيقاً لأصناف الحيوان عن الحركة والتصرف في طلب المعاش وتخمد الحرارة الطبيعية من النبات فيعفن ويفسد كالذي يحدث على النبات إذا كان الموضع لا تقع الشمس عليه.

باب
في خلقة القمر والكواكب

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَجاً وَقَمَراً مُّنِيْراً﴾[1].

اعلم وفقك الله أن الله سبحانه وتعالى لما جعل الليل لبرد الهواء وهدو الحيوان وسكونه فلم يجعله سبحانه ظلمة داجية لا ضياء فيها البته فكان لا يمكن أن يعمل عملاً فيه وربما احتاج الناس إلى بعض أعمالهم في الليل أما لضرورة أو لضيق وقت عليهم من النهار وقد يقع ذلك لشدة حرارة أو لغيره من الأسباب.

فكان ضوء القمر في الليل من جملة ما تحتاج إليه في المعونة على ذلك فجعل طلوعه في بعض الليالي ونقص نوره عن نور الشمس وحرها لئلا ينشط الناس في العمل نشاطهم لكل ما به يتمتعون من الهدوء والقرار فيضر ذلك بهم وجعل في الكواكب جزءاً من النور يستعان به إذا لم يكن ضوء القمر.

---

(١) سورة الفرقان: الآية (٦١).

يقول تعالى ممجداً نفسه ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج وهي الكواكب العظام، وقيل) هي قصور في السماء للحرس، ﴿وجعل فيها سراجاً﴾ وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود. ﴿وقمراً منيراً﴾ أي مشرقاً مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس. تفسير ابن كثير ـ بتصرف.

وجعل في الكواكب زينة السماء وأنساً وانشراحاً لأهل الأرض فانظر ما ألطف هذا التدبير جعلت للظلمة دولة ومدة للحاجة إليها وجعل خلالها شيء من النور ليكمل به ما احتيج إليه.

ثم في القمر علم الشهور والسنين وهو صلاح ونعمة من الله ثم في النجوم مآرب أخرى فإن فيها دلائل وعلامات على أوقات كثيرة لعمل من الأعمال كالزراعة والغراسة والإهتداء بها في السفر في البر والبحر وأشياء مما تحدث من الأنواء والحر والبرد وبها يهتدي السيارون في ظلمة الليل وتقطع القفار الموحشة واللجج الهائلة كما قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَـٰتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[٢].

مع ما في ترددها في السماء مقبلة ومدبرة ومشرقة ومغربة من البهجة والنضارة وفي تصريف[٣] القمر خاصة في استهلاله ومحاقه وزيادته ونقصانه واستنارته وكسوفه كل ذلك دلالات على قدرة خالقها المصرف لها هذا التصرف لإصلاح العالم.

ثم انظر دوران الفلك بهذه الكواكب في كل يوم وليلة دوراناً سريعاً وسيرها معلوم مشاهد فإنا نشاهدها طالعة وغاربة ولولا سرعة سيرها لما قطعت هذه المسافة البعيدة في أربعة وعشرين ساعة فلولا تدبير الباري سبحانه بارتفاعها حتى خفي عنا شدة مسيرها في فلكها لكانت تختطف بتوهجها لسرعة حركاتها كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالت في الجو فانظر لطف الباري سبحانه في تقدير سيرها في البعد البعيد لكيلا يحدث من سيرها حادث لا يحتمل فهي مقدرة في جميع الأحوال على قدر الحاجة.

وانظر في هذه التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها مثل الثريا

---

(٢) سورة الأنعام· الآية (٩٧).
قال بعض السّلف: من إعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه: أن الله جعلها زينة المساء، ورجوماً للشياطين، ويهتدي بها في ظلمات البر والبحر. تفسير ابن كثير.

(٣) تصريف القمر: هي إختلاف رؤيته بالنسبة إلينا، وذلك نتيجة الدوران: من هلال ومحاق وكسوف وبدر. ثم مظلم وإختفاء ليعود من جديد.

والجوزاء والشعري[٤] فإنها لو كانت كلها تظهر في وقت واحد لم يكن لشيء منها دلالة على جهالة تعرفها الناس ويهتدون بها فكان في طلوع بعضها في وقت دون الآخر ما يدل على ما ينتفع به الناس عند طلوعه مما يصلحها ولذلك جعلت بنات نعش[٥] ظاهرة لا تغيب لضرب من المصلحة فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر فإنها لا تغيب ولا تتوارى.

ثم انظر لو كانت واقفة لبطلت الدلالات التي تكون من تنقلات المتنقلة منها ومصيرها في كل واحد من البروج كما يستدل على أشياء تحدث في العالم بتنقل الشمس والقمر في منازلهما ولو كانت منتقلة كلها لم يكن لمسيرها منازل تعرف ولا رسم يقاس عليه لأنه إنما يعرف مسير المتنقلة منها بتنقلها في البروج الدانية كما يعرف سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتازها فقد صار هذا الفلك شمسه وقمره وبروجه تدور على هذا العالم دوراناً دائماً في الفصول الأربعة من السنة لصلاح ما فيه من حيوان ونبات وغير ذلك بتقدير العزيز العليم.

ومن عظيم الحكمة خلق الأفلاك التي بها ثبات هذا العالم على نهاية من الإتقان لطول البقاء وعدم التغير فقد كفى الناس التغير في هذا الأمر الجليل الذي ليس قدرة ولا حيلة في إصلاحه لو نزل به تغير يوجب ذلك التغير أمراً في الأرض إذ قوام الأرض مرتبط بالسماء فالأمر في جميع ذلك ماضٍ على قدرة الباري سبحانه ولا يختل ولا يعتل ولا يتخلف منه شيء عن ميقاته لصلاح العالم فسبحانه العليم القدير.

---

(٤) الشَعْرَى: الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدّة الحر.

(٥) بنات نعش: الكبرى سبعة كواكب نشاهدها جهة القطب الشمالي ومثلها الصغرى والنجمة التي رُسمت كبيرة هي النجمة القطبية التي يستدل بها على نقطة القطب الشمالي.



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باب
في حكمة خلق الأرض

قال تعالى:

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾[1].

ثم انظر كيف جعل الله الأرض مهاداً ليستقر عليها الحيوان فإنه لا بد له من مستقر ولا غناء له عن قوت فجميع الأرض محل للنبات لقوته ومسكن يكنه من الحر والبرد ومدفن يدفن فيه ما تؤذى رائحته والجيف والأقذار من أجسام بني آدم وغيرها كما قال سبحانه:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾[2].

قيل في تفسير هذه الآية هذا القول وغيره ثم ذلل طرقها لتنتقل فيها الخلق طلب مآربهم فهي موضوعة لبقاء النسل من جميع أصناف الحيوان والحرث النبات وجعل فيها الإستقرار والثبات كما نبه على ذلك سبحانه وتعالى بقوله:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَّكُمْ

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٤٨).
إن الله تعالى جعل الأرض فراشاً لجميع مخلوقاته وجعلها مهداً لأهلها.

(٢) سورة المرسلات: الآية (٢٥، ٢٦).
قال الشعبي: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم.

وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾[3].

فـأمكن الخلائق بهـذا التصرف فيهـا في مـآربهم والجلوس لـراحتهم والنـوم لهدوهم والإنتقال لأعمالهم فإنها لو كـانت رجراجـة متحركـة لم يستطيعـوا أن يتقنوا شيئاً من النبات وجميع الصناعات وكانـوا لا يتهنون بـالعيش والأرض ترتـج بهم من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس في الزلازل ترهيبـاً للخلق وتخويفـاً لهم لعلهم يتقـون الله وينزعـون عن الظلم والعصيـان، فهذا أيضـاً من الحكمة البـالغة ثم أن الأرض طبعهـا الله باردة يـابسة بقـدر مخصوص أرأيت لـو أفـرط أليبس عليهـا حتى تكون بجملتها حجراً صلداً لما كانت تنبت هذا النبات الذي به حياة الحيـوانات ولا، كان يمكن فيها حرث ولا بناء فجعلها لينة لتهيأ لهذه الأعمال.

ومن الحكمـة في خلقها ووضعهـا أن جعل مهب الشمـال أرفـع من الجنـوب لينحدر الماء على وجه الأرض فيسقيها ويـرويها ثم يصيـر إلى البحر في آخـر الأمر فأشبه ذلك ما إذا رفع أحد جانبي السطح وخفض الآخر لينحدر الماء عنه ولولا ذلك لبقي المـاء مستبحراً على وجـه الأرض فيمتنع النـاس من أعمالهم وتنقـطع الـطرق، والمسالك بسبب ذلك.

انـظر إلى ما خلق الله فيهـا من المعادن ومـا يخرج منهـا من أنـواع الجـواهـر المختلفة في منافعها وألوانها من الذهب والفضة والياقوت والزمـرد والبسنفش وأشياء كثيرة من هذه الأحجار الشفافة المختلفة في ألوانها وأنواع أخرى مما يصلح الأعمال والجمال كالحديد والنحاس والقزدير والرصاص والكبريت والزرنيخ والتوتيا والـرخام

---

(٣) سورة النازعات: الآيات (٣١، ٣٢، ٣٣).

﴿أخرج منها ماءها ومرعها﴾ وقـد تقدّم في سـورة (حم السجدة) أن الأرض خلقت قبـل خلق السماء ولكن إنما ذهبت بعـد خلق السماء، بمعنى أنـه أخرج مـا كان فيهـا بالقـوة إلى الفعل ـ عن ابن عباس ـ ﴿دحاها﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمـرعى وشقق فيها الأنهـار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام. وقوله تعالى: ﴿ والجبـال أرساهـا﴾ أي قررهـا وأثبتهـا في أمـاكنهـا وهـو الحكيم العليم الـرؤوف بخلقـه. وقـولـه تعـالى: ﴿متاعـاً لكم ولأنعامكم﴾ أي دحـا الأرض فاتبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهـارها، وأنبت زروعهـا وأشجارها، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبـونها مـدة إحتياجهم إليهـا في هذه الـدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل. مختصر تفسير ابن كثير.

والجبس والنفط وأنواع لو عددت لطال ذكرها وهو مما ينتفع به الناس وينصرف فيما يصلحهم فهذه نعم يسرُها سبحانه لهم لعمارة هذه الدار.

ثم انظر إلى إرادة إيجادته من عمارتها وانتفاع العباد بها لجعلها هشة سهلة بخلاف ما لو كانت على نحو خلق الجبال فلو يبست كذلك لتعذرت فإن الحرث لا يستقيم إلا مع رخاوة الأرض لزراعة الأقوات والثمر وإلا لا يتعدى إذا صلبت الماء إلى الحب مع أن الحب لا يمكن دفنه إلا بعد أن تلين الأرض بالنداوة ويأخذ الورق وهي ضعيفة في ابتدائها في الأرض التربة ويمكن إذ ذاك عملها وتحريكها حتى تشرب ما ينزل عليها من الماء فيخلق الله سبحانه عند ذلك العروق ملتبسة بالثرى حتى يقف الشجر والنبات على ساقه وجعل ما يخلق من العروق يوازن ما يخلق من الفروع.

ومن رحمته في لينها أن ييسر للناس حفر الآبار في المواضع المحتاجة إلى ذلك إذ لو حفرت في الجبال لصعب الأمر وشق.

ومن الحكمة في لينها تيسير السير للسعاة فيها إذ لو صلبت لعسر السير ولم تظهر الطرق وقد نبه الله تبارك وتعالى على ذلك بقوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾(٤).

وقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾(٥).

---

(٤) سورة الملك: الآية (١٥).

يذكر الله تعالى نعمته على حلقه في تسحيره لهم الأرض، وتدليله إياها لهم وهيّأ فيها مس المنافع ومواصع الزروع والتمار، ثمّ يحث المؤمنين على السّفر في الأرص حيث شاؤوا من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها طلباً للمكاسب والتجارة، وليعلموا أن سعيهم لا يجدي عليهم نفعاً إلا أن ييسّره الله لهم. فاسعوا في الأرض وتوكلوا على الله.

وقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تعدو خماصاً وتروح بطاناً» - رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عمر بن الخطاب (عليه السلام) - وقال ابن عباس ومحاهد: مناكبها: أطرافها وفحاجها ونواحيها. مختصر ابن كثير.

(٥) سورة الأنبياء: الآية (٣١).

أي جعلنا ثغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً، مں قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، كما

ومن ذلك ما يستعين به العباد من ترابها ولينها في البناء وعمل اللبن وأواني الفخار وغير ذلك والمواضع التي بنيت فيها الملح والشب والسورق[٦] والكبريت وأكثرها تربة رخوة وأيضاً أجناس من النبات لا توجد إلا في التراب والرمل دون الأرض المجبلة.

ويخلق فيها كثير من الحيوان لسهولة حفرها فيتخذون فيها مسارب وبيوتاً يأوون إليها ومن الحكمة فيها خلق المعادن كما ذكر فقد امتن سبحانه على سليمان عليه السلام بذلك فقال: «وأسلنا له عين القطر» أي سهلنا له الإنتفاع بالنحاس وأطلعناه على معدنه وقال امتناناً على عباده:

﴿وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [٧] .

والنزول بمعنى الخلق كما قال سبحانه:

﴿وَأَنْـزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَـٰمِ﴾[٨].

أي خلقهم وألهمهم استخراج ما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك لمنافعهم وما يحتاجون إليه في معاشهم وفي اتخاذ أوانيهم وفي ضبط ما يحتاجون إلى ضبطه وتقويته واتخاذ أنواع من الحجارة النفيسة لتبقى فيها كالزجاج ويتخذون منها أواني لحفظ ما يجعل فيها من الأموال النفيسة لتبقى فيها سليمة لوقت الإحتياج إليها إذ لا غنى لهم عنها.

•كذلك يستخرج من المعادن الأكحال مثل (لدهبخ والمفيعما) والسادن[٩] والتوتيا وغير ذلك من أصناف ينتفعون بها فسبحان المنعم الكريم.

ومن الحكمة البالغة فيها خلق الجبال قال الله تعالى:

هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا ولهذا قال تعالى: ﴿لعلهم يهتدون﴾.

(٦) البورق: النطرون، قيل هو أقوى من الملح لكن ليس له قبض(فارسية وقيل يونانية).

(٧) سورة الحديد: الآية (٢٥).

(٨) سورة الزمر: الآية (٦).

(٩) السَّادان: هنا بمعنى السندان، قال ابن عباس. ثلاثة أشياء نزلت مع آدم: السندان، والكلبتان، والميقعة يعني المطرقة.

﴿وَالْجِبَالَ أَرسَـها مَتـعاً لَكُمْ﴾[١٠].

وقال تعالى:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا روسي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾[١١]

وقال سبحانه:

﴿وأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـهُ فِي ٱلأَرْضِ﴾[١٢].

فقد خلق سبحانه فيها الجبال لمنافع متعددة لا يحيط بجميعها إلا الله، فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء المياه ليحيى بها العباد فلو كانت الأرض عارية عن الجبال لحكم عليها الهواء وحر الشمس مع رخاوة الأرض فكانوا لا يجدون المياه إلا بعد حفر وتعب ومشقة فجعل سبحانه الجبال لتستقر في بطونها المياه وتخرج أولاً فأول فتكون منها عيون وأنهار وبحار يرتوي بها العباد في أيام القيظ إلى أوان نزول غيث السماء.

ومن الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه فجعل الثلج محفوظاً على ظاهرها إلى أن يحله حر الشمس فيكون منه أنهار وسواق ينتفع بها إلى أوان نزول الغيث أيضاً.

ومنها ما يكون فيه برك يستقر فيها الماء فيؤخذ منها وينتفع به كما ينتفع به من الأجباب[١٣] ومن منافع الجبال ما ينبت فيها من أنواع الأشجار والعقاقير التي لا توجد إلا فيها وما ينبت فيها من أنواع الأخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن وفيها الشعارى التي لا يوجد ما يعظم من الأخشاب إلا فيها وكذلك العقاقير أكثرها لا يوجد إلا بها وفيها وهذا ينبت مزارع للأنعام ومزارع لبني آدم ومساكن للوحوش ومواضع لأجناح النحل.

ومن منافع الجبال ما يتخذه العباد من مساكن تقيهم الحر والبرد ويتخذون مدافن لحفظ جثث الموتى وقد ذكر الله ذلك فقال:

---

(١٠) سورة النازعات: الآيتان (٣٢، ٣٣).

(١١) سورة فصلت: الآية (١٠) سورة النحل: الآية (١٥).

(١٢) سورة المؤمنون: الآية (١٨)

(١٣) الأجباب: مفردها جب، وهو البئر.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً ءَامِنِينَ﴾(١٤).

ومن فوائدها أن جعلت أعلاماً يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض ويستدل بها المسافرون في البحار على المين والسواحل، ومن فوائدها أن الفئة القليلة الضعيفة الخائفة من عدوان من لا تطيقه تتخذ ما يحصنها ويؤمنها ويمنعها ممن تخافه فتطمئن لذلك وانظر كيف خلق الله فيها الذهب والفضة وقدرهما بتقدير مخصوص ولم يجعل ذلك ميسراً في الوجود والقدر مع سعة قدرته وشمول نعمته كما جعل هذه السعة في المياه وما ذلك إلا لما سبق في علمه لخلائقه مما هو الأصلح كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾(١٥).

فسبحان العليم الحكيم.

---

(١٤) سورة الحجر: الآية (٨٢).

(١٥) سورة الحجر: الآية (٢١).

(*) في هذه الآيات الكريمة (٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥). أن الله تعالى خلق لنا الأرض وألهمنا لإستخراج ما فيها لصالح عيشنا الكريم مع السعي والعمل والتوكل على الله.
وللإنسان أن يحيط نفسه بالضمانات التي تقيه الوقوع في الخطأ والعوز والكسل، وأن يتعلم من ماضيه ما يصون حاضره ومستقبله. وتمكينه من العمل الذي يسرّه الله له في الأرض والجبال والمياه، فصداقاً لقوله تعالى: ﴿ **ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش**﴾(الأعراف: ١٠).

باب
في حكمة خلق البحر

قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾(١).

الآية أعلم رحمك الله أنه سبحانه وتعالى خلق البحار وأوسع فيها لعظم نفعها فجعلها مكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطعة من الأرض المستورة بالبحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى أن جميع المكشوف من البراري والجبال عن الماء بالإضافة إلى الماء كربوة صغيرة في بحر عظيم.

فاعلم أن ما يخلق في الأرض من الحيوان بالإضافة إلى ما خلق في البحر كإضافة الأرض إلى البحر وقد شاهدت فيها عجائب ما هو مكشوف منها فتأمل عجائب البحر(٢) فإن فيه من الحيوان والجواهر والطيب أضعاف ما نشاهده على

---

(١) سورة النحل: الآية (١٤).
يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وإستخراجهم من قراره من الحيوان أضعاف ما نشاهده على وجه الأرض.

(٢) يقول باحث الأحياء المائي (جيري جرنبرح) واصفاً مدينة الشعاب المرجانية: هي مدينة تحت البحر. مدينة لم يشارك في بناء حجر منها إسان. إنها مدينة طبيعية من صنع الخالق جلّ شأنه. ها هي قناديل البحر تنتفخ وتضيء وها هي المدينة تبدو كبساط سحري مزركش مطرز بألف لون يضم لوحات طبيعية حية.. إنها الشعاب المرجانية، إنها الجمال البكر الحالم ويوجد هناك أكثر من خمسين نوعاً من الشعاب مختلفة الأشكال والألوان ذات مسميات عديدة مثل: النجوم، نبات الصبار، الحلزونية، الأسفنجية الورقة التويجية،

وجه الأرض كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ولعظم سعته كان فيه من الحيوانات والدواب العظيمة ما إذا أبدت ظهورها على وجه البحر ظن من يراها أنها حشاف أو جبال أو جزائر وما من صنف من أصناف حيوان البر من إنسان وطائر وفرس وبقر غير ذلك إلا وفي البحر أمثالها وأضعافها وفيه أجناس من الحيوانات لم تعهد أمثالها في البر وكل منها قد دبره الباري سبحانه وخلق فيه مايحتاجه ويصلحه ولو استقصى ذكر ما يحتويه بعضه لإحتاج إلى وضع مجلدات.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ مدوراً في صدف[٣] تحت الماء وأثبت المرجان في جنح صخور في البحر فقال سبحانه:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[٤].

وذلك في معرض الإمتنان وقيل المرجان المذكور في القرآن هو الرقيق من اللؤلؤ ثم قال:

﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٥].

وآلاؤه تفضله ونعمه ثم انظر ما يقذفه من العنبر[٦] وغيره من المنفوع ثم انظر إلى عجائب السفن وكيف مسكها على وجه الماء تسير فيها العباد لطلب الأموال وتحصيل مالهم من الأغراض جعلها من آياته ونعمته فقال:

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾[٧].

الطاووسية... الخ.. وكأنك في بلاط إمبراطوري.

(٣) هو إفراز بعض الحيوانات البحرية الرخوية كالمحار بدافع به عن نفسه ضد الأجسام العريبة التي تغزو جسمه.

(٤) سورة الرحمن: الآية (٢٢)

(٥) سورة الرحمن: الآية (١٣).

فبأي الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان؟ أي النعم ظاهرة عليكم وأنتم معموررون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كماقالت الجن: «اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا تكذب فلك الحمد»، وكان ابن عباس يقول: لا بأيها يا رب، أي لا تكذب بشيء منها. مختصر ابن كثير.

(٦) العنبر: قيل أنه إفراز بعض الكائنات البحرية، ولعله التمساح.

(٧) سورة البقرة: الآية (١٦٤).

أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب، لمعايش الناس والإنتفاع بما

فجعلها بتسخيره تحملهم وتحمل أثقالهم وينتقلون بها من أقاليم إلى أقاليم لا يمكن وصولهم إليها إلا بالسفن ولو راموا التوصل بغيرها لأدى إلى أعظم المشقات وعجزوا عن نقل ما ينقل من المنقولات إلى ما بعد من البلاد والجهات.

فلما أراد الله سبحانه وتعالى أن يلطف بعباده ويهون ذلك عليهم خلق الأخشاب متخلخلة الأجزاء بالهواء ليحملها الماء[٨] ويبقى فيها من الفضاء عن نفسها ما تحمل به الأثقال وألهم العباد اتخاذها سفناً ثم أرسل الرياح بمقادير في أوقات تسوق السفن وتسيرها من موضع إلى موضع آخر ثم ألهم أربابها معرفة أوقات هبوبها وفترتها حتى يسيروا بالرياح التي تحمل شراعها.

وانظر إلى ما يسره سبحانه في خلقه الماء إذ هو جسم لطيف رقيق سيال متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطع حتى كأنه منفصل مسخراً للتصرف قابل للإتصال والإنفصال حتى يمكن سير السفن فيه فالعجب ممن يغفل عن نعمة الله في هذا كله وفي بعضه متسع للفكر.

وكل ذلك شواهد متظاهرة ودلائل متضافرة وآيات ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال قدرته وعجائب حكمته قائلة أما ترى تصويري وتركيبي وصفائي زمناً واختلاف حالي وكثرة فوائدي أيظن ذو لب سليم وعقل رصين أني تكونت بنفسي أو أبدعني أحد من جنسي بل ذلك صنع القادر القهار العزيز الجبار.

عند أهل ذلك الأقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، وما عند أولئك إلى هؤلاء. مختصر ابن كثير.

(٨) ويقصد بها المراكب والسفن وغيره من وسائل النقل البحرية المصنوعة كلها من الأخشاب لأنها تطفو على وجه الماء، ويحركها الهواء لخفتها، وبمساعدة الأشرعة.



باب
في حكمة خلق الماء

قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

وقال عز شأنه:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٣٠).

(٢) سورة النمل: الآية (٦٠).

﴿أمن خلق السموات﴾: أي خلق تلك السماوات في إرتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، والنجوم الزاهرة، والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار،والفيافي والقفار، والزروع والأشجار والثمار والبحار، والحيوان على إختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك. وقوله تعالى ﴿وأنزل لكم من السماء ماء﴾. أي جعله رزقاً للعباد ﴿فأنبتنا به حدائق﴾ أي بساتين ﴿ذات بهجة﴾ أي منظر حسن وشكل بهي ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ أي لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به المشركون ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾. أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده

انظر وفقك الله إلى ما منّ به سبحانه وتعالى على عباده بوجود الماء العذب الذي به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو اضطر الإنسان إلى شربة منه ومنع منها لهان عليه أن يبذل فيها ما يمكنه من خزائن الدنيا.

والعجب من غفلة العباد عن هذه النعمة العظيمة وانظر مع شدة الحاجة إليها كيف وسع سبحانه على العباد فيها ولو جعلها بقدر لضاق الأمر فيها وعظم الحرج على كل من سكن الدنيا.

ثم انظر لطافة الماء ورقته حتى ينزل من الأرض ويخلخل أجزاءها فتغذي عروق الشجر ويصعد بلطافته بواسطة حرارة الشمس إلى أعالي الشجر والنباتات وهو من طبعه الهبوط ولما كانت الضرورة تدعو إلى شربه لإماعة الأغذية في أجواف الحيوان ليتصرف الغذاء إلى موضعه جعل لشاربه في شربه لذة عند الحاجة إليه وقبولاً له ويجد شاربه فيه نعيماً وراحة وجعل مزيلاً للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب وغيره وبالماء يبل التراب فيصلح البناء والأعمال وبه يرطب كل يابس مما لا يمكن استعماله يابساً وبه ترفق الأشربة فيسوغ شربها وبه تطفأ عادية النار إذا وقدت فيها فلا تلتهب فيه وأشرف الناس منها عليها يكرهون وبه تزول الغصة إذا أشرف صاحبها على الموت وبه يغتسل التعب الكال فيجد الراحة لوقته.

وبه تستقيم المطبوخات وجميع الأشياء التي لا تستعمل ولا تصلح إلا رطبة إلى غير ذلك من مآرب العباد التي لا غنى عنها فانظر في عموم هذه النعمة وسهولة تناولها عن قدرها مع شدة الحاجة إليها فلو ضاقت لتكدرت الحياة في الدنيا فاعلم بهذا أن الله تبارك وتعالى أراد بإنزاله وتيسيره عمارة الدنيا[٣] بما فيها من حيوان

لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿**أإله مع الله**﴾، أي أإله مع الله يعبد، وقد تبين لكم ولكل ذي لبٍّ مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق، ومن المفسرين من يقول: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقلّ المتفرّد بالخلق والرزق والتدبير؟ ثم قال ﴿**بل هم قوم يعدلون**﴾ ، أي يجعلون لله عدلاً ونظيراً، ولهذا قال تعالى: ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾. مختصر ابن كثير.

(٣) أوجد الله سبحانه وتعالى الماء العذب، وأنزله لعباده من السماء طهوراً طيباً مباركاً غدقاً عذباً فراتاً سائغاً للشاربين، وذلك لحاجتهم الماسة والضرورية إليه، فهو قوام حياة البشر والحيوان والزرع، وبدونه لا تقوم حياة الإنسان أو حيوان أو زرع. فهو كما يقول ابن القيم:

ونبات ومعدن إلى غير ذلك من المنافع التي يقصر عنها الوصف لمن يروم حصرها فسبحان المتفضل العظيم.

«مادة الحياة، وسيِّد الشراب، وأحد أركان العالم بل ركنه الأصلي، فإن السموات خلقت من بخاره، والأرض من زبده، وقد جعل الله منه كل شيء حي».

وهنا لا بدّ لنا في هدا الباب، من الحديث عن ماء زمزم: وهو من أشهر المياه عند العرب، فقد ورد في آثار السّلف أن الكثير من المرضى تداووا به، وذكرت المصادر أن أبا ذرالعفاري رضي الله عنه عاش على ماء زمزم ثلاثين يوماً وليلة فسمن ولم يهزل. وذكر الإمام ابن القيم: أنه شاهد من كان يتداوى بماء زمزم كما رأى من كان يتغذى بذلك الماء، ويعيش عليه فترة طويلة دون أن يضعف أو تذهب قوته. والعرب تقول: «أطيب الطيّب الماء».



باب
الحكمة في خلق الهواء

قال الله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾[1].

اعلم رحمك الله أن الهواء في خلقه تتخلخله الرياح ولولا ذلك لهلك جميع حيوان البر وباستنشاقه تعتدل الحرارة في أجسام جميع الحيوانات لأنه لهم مثل الماء لحيوان البحر فلو انقطع عن الحيوان استنشاقه انصرفت الحرارة التي فيها إلى

---

(١) سورة الحجر: الآية (٢٢).

﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾: أي تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها وذكرها تعالى بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج، وقال الضحّاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلىء ماء، وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قماً، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السّحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر. ﴿فأسقيناكموه﴾ أي أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه. ﴿وما أنتم بخازنين﴾ قال سفيان الثوري: بمانعين، ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره، وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً وحفظه في العيون والآبار والأنهار، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم مختصر ابن كثير.

قلبها فكان هلاكاً بسبب ذلك ثم انظر إلى الحكمة في سوق السحاب به فيقطع المطر بانتقال السحاب إلى موضع يحتاج إلى المطر فيها للزراعة فلولا لطف الباري يخلق الرياح لثقلت السحائب وبقيت راكدة في أماكنها وامتنع انتفاع الأرض بها.

ثم انظر عنها كيف تسير السفن بها وتنتقل بحدوثها وهبوبها فتحمل فيها من أقاليم إلى أقاليم مما لا يخلق تلك الأشياء فيها فينتفع أهلها بها فلولا تنقلها بالهواء لم تكن تلك الأشياء إلا بمواضعها التي خلقت فيها خاصة ولعسر نقلها بالدواب إلى غيرها من الأقاليم وللعباد ضرورات تدعو إل ما ينقل إليهم مما ليس يخلق عندهم ومنافع يكثر تعدادها من طلب أرباح لمن يحملها ويعلم فوائدها.

ثم انظر إلى ما في الهواء من اللطافة والحركة يتخلل أجزاء العالم فينقى بحركته عفن الأرض فلولاه لعفنت المساكن وهلك الحيوان بالوباء والعلل.

ثم انظر إلى ما يحصل منه من النفع في نقل السوافي والرمال إلى البساتين وتقوية أشجارها بما ينتقل إليها من التراب بسبب حركة الهواء وتستر وجوه جبال بالسوافي فيمكن الزراعة فيه وما فصل إلى السواحل مما ينتفع الناس بسببه وكل ذلك بحركة البحر بالهواء[٢] فيقذف البحر العنبر وغيره مما ينتفع به العباد في أمورهم.

ثم انظر كيف يتفرق المطر بسبب حركة الهواء فيقع على الأرض قطرات فلولا حركة الهواء لكان الماء عند نزوله ينزل انصبابة واحدة فيهلك ما يقع عليه ثم يجتمع بلل القطرات فيجتمع أنهاراً وبحاراً على وجه الأرض من غير تضرر ويحصل بذلك مقصودهم على أحسن وجه.

فانظر إلى أثر رحمة الله فسبحان اللطيف بخلقه المدبر لملكه ثم انظر عموم هذه الرحمة وعظيم نفعها وشمول هذه النعمة وجليل قدرها كما نبه العقول عليها بقوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنْ ٱلْسَّمَاءِ مَاءً لَكُمُ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

---

(٢) أمواج البحر التي تراها هادئة حيناً ومائجة أحياناً ما هي إلا حركة الرياح والهواء الليّن مرة والعاصف مرات. وحركة الموج هذه تمنع ترسب الملح في قاع البحر وإلا لماتت جميع الكائنات البحرية.

يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

ثم من باب النعمة وعظيم الحكمة أن جعل سبحانه الصحو يتخلل نزول الغيث فصارا يتعاقبان لما فيه صلاح هذا العالم فلو دام واحد منهما عليه لكان فساداً.

ألا ترى أن الأمطار إذا توالت وكثرت عفنت البقول والخضروات وهدمت المساكن والبيوت وقطعت السبل[٤] ومنعت من الأسفار وكثير من الحرف والصناعات ولو دام الصحو لجفت الأبدان والنبات وعفن الماء في العيون والأودية فأضر ذلك بالعباد وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضرراً آخر من الأمراض وغلت بسببه الأسعار من الأقوات وبطل المرعى وتعذر على النحل ما يجده من الرطوبة التي يرعاها على الأزهار وإذا تعاقبا على العالم اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما ضرر الآخر فصلحت الأشياء واستقامت وهذا هو الغالب من مشيئة الله. فإن قلّ قد يقع من أحدهما ضرر في بعض الأوقات.

قلنا قد يكون ذلك لتنبيه الإنسان بتضاد الأشياء على نعمة الله تعالى وفضله ورحمته أنه هو الغالب فيحصل لهم بذلك انزجار عن الظلم والعصيان ألا ترى أن من سقم جسمه احتاج إلى ما يلائمه من الأدوية البشعة الكريهة ليصلح جسمه ويصلح ما فسد منه قال الله تعالى:

---

(٣) سورة النحل: الآيتان (١٠، ١١).
تسيمون: أي ترعون، ومنه الإبل السّائمة، والسّوم: الرعي.

(٤) تسمع في هذه الأيام كثيراً عن (الكوارث الطبيعية) في بلدان العالم حيث تهدم البيوت وتنهار الجسور وتقطع الطرقات، وتغرق مساحات كبيرة من القرى والمزارع بالمياه ويتعذر معها الحركة والعمل، والإنسان يراقب ويرى وليس في يده حيلة، هذا إذا زاد المطر عن حده قليلاً فكيف إذا تساقط المطر بشكل دائم، فتصوّر ما هي النتيجة، وتذكر نعم الله وجليل قدره في مخلوقاته.

﴿وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[٥].

(٥) سورة الشورى: الآية (٢٧).

أي يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، كما جاء في الحديث المروي ـ أي المحكي عن الله عز وجل وهو المشهور بالحديث القدسي ـ : «إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغني ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه».
مختصر ابن كثير.

باب
في حكمة خلق النار

قال الله تعالى:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

اعلم وفقنا الله وإياك أن الله خلق النار وهي من أعظم النعم على عباده ولما

---

(١) سورة الواقعة: الآيات (٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤).

﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾ أي تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها. ﴿أأنتم أنشأتم شجرتها أن نحن المنشئون﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها وللعرب شجرتان: إحداهما (المرخ) والأخرى (العفار) إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر نار. وقوله تعالى: ﴿نحن جعلناها تذكرة﴾: قال مجاهد وقتادة: أي تذكر النار الكبرى، وعن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد».

وقوله تعالى: ﴿ومتاعاً للمقوين﴾: قال ابن عباس ومجاهد: يعني بالمقوين المسافرين وإختاره ابن جرير، وقال إبن أسلم: المقوي ههنا الجائع، وقال ليث، عن مجاهد: أي للحاضر والمسافر، لكل طعام لا يصلحه إلا النار وعنه ﴿للمقوين﴾ يعني المستمتعين من الناس أجمعين، وهذا التفسير أعم من غيره. وقوله تعالى: ﴿فسبح بسم ربك العظيم﴾: أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة، الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزجراً لهم في المعاد. مختصر ابن كثير.

علم الله سبحانه وتعالى أن كثرتها وبثها في العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة حتى إذا احتيج إليها وجدت واستعملت في كل أمر يحتاج إليها فيه فهي مخزونة في الأجسام ومنافعها كثيرة لا تحصى فمنها ما تصلحه من الطبائخ والأشربة التي لولاها لم يحصل فيها نضج ولا تركيب ولا اختلاط ولا صحة هضم لمن يستعملها في أكل وشرب فانظر لطف الباري سبحانه في هذا الأمر المهم.

ثم انظر فيما يحتاج الناس إليه من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقزدير وغير ذلك فلولاها لم يكن شيء من الإنتفاع من هذه الأشياء فيها يذاب النجاس فتعمل منه الأواني وغيرها وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك بأنها نعمة توجب الشكر فقال تعالى:

﴿ٱعْمَلُوا ءَآلَ دَاوُدَ شُكْرَاً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِي الشَّكُورُ﴾[٢].

وبها يلين الحديد فيعملون به أنواعاً من المنافع والآلات للحروب مثل الدروع والسيوف إلى غير ذلك مما يطول تعداده وقد نبه الله تعالى على مثل ذلك فقال:

﴿وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[٣].

وقال تعالى:

﴿لِتُحصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُم فَهَلْ أَنْتُمْ شَـٰكِرُونَ﴾[٤].

---

(٢) سورة سبأ: الآية (١٣).
(٣) سورة الحديد: الآية (٢٥).
(٤) سورة الأنبياء: الآية (٨٠).

ومنه يعمل آلات للحرث والحصاد وآلات تتأثر بها النار وآلات يطرق بها وآلات لقطع القبال الصمة وآلات لنجارة الأخشاب مما يكثر تعدادها فلولا لطف الله(٥) سبحانه بخلق النار لم يحصل من ذلك شيء من المنافع ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة نقود ولا زينة ولا منفعة وكانت هذه الجواهر معدودة من جملة الأتربة.

ثم انظر إلى ما جعل الله تعالى في النار من الفرح والترح عندما تغشى الناس ظلمة الليل كيف يستضيئون بها ويهتدون بنورها في جميع أحوالهم من أكل وشرب وتمهيد مراقد ورؤية ما يؤذيهم ومؤانسة مرضاهم وقصدها والعمل عليها براً وبحراً فيجدون بوجودها إنساً حتى كأن الشمس لم تغب عن أفقهم ويدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ويستعينون بها في الحروب ومقاومة حصون لا تملك إلا بها فانظر ما أعظم قدر هذه النعمة التي جعل سبحانه حكمها بأيديهم إن شاؤا خزنوها وإن شاؤا أبرزوها.

---

(٥) للنار أقوى الصلات وأمتنها بالحياة الإنسانية منذ بدء الخليقة فهي حير وشرّ في آن واحد. إذا حدمت الإنسان نفعته وأحسنت إليه، وإذا انطلقت دمرت وأحرقت بلا حدود

ولقد أوجد الله سبحانه وتعالى النار وأنشأها لعباده لحاجتم الماسة والصرورية إليها فهي من أعطم ما يرتففون به في معايشهم، وبدونها لا تصلح حياتهم ولا تستقيم أمورهم، ولا يساويها في عميم نفعها وعظيم خطرها وجليل أثرها إلا الماء.

يقول النبي الكريم ﷺ «الناس شركاء في ثلاثة: النار والكلأ والماء. وهذه النار التي إمتنّ الله بها على عباده وعدّها من عظيم آلائه ونعمه عليهم في معاشهم وحياتهم، هي هي التي توعّد بها العاصين منهم، وأنذرهم بعقابه لهم بها في معادهم وأخراهم.

كما ورد ذكر النار في القرآن الكريم (١٤٥ مرّة) عدّد فيها صفاتها


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باب
في حكمة خلق الانسان

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنسَـٰنَ مِنْ سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[1].

إلى آخر ما وصفه سبحانه. اعلم وفقك الله تعالى أن الله عز وجل لما سبق في علمه خلق الخلق وبثهم في هذه الدار وتكليفهم فيها للبلوى.

خلقهم سبحانه متناسلين بعضهم من بعض فخلق سبحانه الذكر والأنثى وألقى في قلوبهم المحبة والدواعي حتى عجزوا عن الصبر وعدموا الحياة في اجتناب الشهوة فساقتهم الشهوة المفطورة[2] في خلقهم إلى الإجتماع.

وجعل الفكرة تحرك عضواً مخصوصاً به إلى إيداع الماء في القرار المكين

---

(١) سورة المؤمنون. الآية (١٢).

يقول تعالى: مخبراً عن إبتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. وقال ابن عباس ﴿من سلالة من طين﴾ قال: وقال ابن جرير: إنما سمي آدماً طيناً لأنه مخلوق منه، وقال قتادة: استل آدم من الطين وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السِّياق، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون. وذلك مخلوق من التراب. مختصر ابن كثير.

(٢) الشهوة المفطورة تعني الإجتماع، وهو الزواج الشرعي والمحبة حتى يستقيم العجز عن الصبر مع طبيعة النفس البشرية، لذلك رفض الإسلام طريق الرهبنة وإجتناب الشهوة لأنه بالرهبنة تعطيل لعنصر الشهوة المفطورة في طبيعة الإنسان من ذكر وأنثى.

الـذي يخلق فيه الجنين فـاجتمعت فيه النـطفة من سـائر البـدن وخرجت مـاء دافقـاً مندفعاً من بين الصلب والترائب بحركة مخصوصة فانتقلت بسبب الإفـلاح من باطن إلى باطن فكانت مع انتقالها باقيـة على أصلها لأنهـا ماء مهين أدنى شيء يبـاشرهـا يفسدها ويغير مزاجها فهي ماء مختلط جميعه مستوية أجزاؤه لا تفاوت فيها بحال.

فخلق سبحانه منه الذكر والأنثى بعد نقلها من النطفة إلى العلقة إلى المضغـة إلى العـظام ثم كساهـا اللحم وشدهـا بالأعصـاب والأوتار ونسجهـا بالعـروق وخلق الأعضاء وركبها فدور سبحانه الرأس(٣) وشق فيه السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ فجعل العين للبصر ومن العجائب سر كونها مبصـرة للأشيـاء وهو أمـر يعجز عن شرح سره.

وركبها من سبع طبقات لكل طبقة صفة وهيئة مخصوصـة بها فلو فقـدت طبقة منها أو زالت لتعطلت عن الأبصار.

وانظر إلى هيئة الأشفار التي تحيط بها وما خلق فيها من سـرعة الحـركة لتقي العين مما يصل إليهـا مما يؤذيهـا من غبار وغيـره فكانت الأشفـار بمنزلـة باب يفتـح وقت الحاجة ويغلق في غير وقتها ولما كان المقصود من الأشفار جمال العين والوجه جعل شعرها على قدر لا يزيد زيادة تضر بالعين ولا ينقص نقصاً يضـر بها وخلق في مـائها ملوحـة لتقطيـع ما يقـطع فيها وجعـل أطرافهـا منخفضتين عن وسطهمـا قليلاً لينصرف ما يقع في العين لأحد الجانبين وجعل الحاجبين جمالاً للوجه وستراً للعين وشعرهما يشبه الأهداب في عدم الزيادة المشوهة.

وجعل شعر الـرأس واللحية قـابلاً للزيـادة والنقص فيفعل فيهمـا ما يقصـد به الجمال من غير تشويه.

ثم انـظر إلى اللسان(٤) ومـا في ذلـك من الحكم فجعـل الشفتين سـتـراً للفم

---

(٣) إن حكمة الباري سبحانه بجعل الرأس قمة الجسم البشري تجعلنا خاشعين لقدرته وحكمته في تكـوين خلقـه حيث ركب فيـه السمـع والبصـر والأنف والفم والأذن وهي أهم الحـواس المميزة للعنصر البشـري، وحمى فيـه ضمن تجويف عـظمي متين الدمـاغ المفكر والأعصاب الآمرة والناهية، ومركز الـذاكرة والسيـطرة والحركـة، ويطول بنـا الشرح إذا أردنـا تفسير كل عضو فيه فانظر سره في خلقه سبحانه. .

(٤) إقتضت حكمـة الله تعالى خلق اللسـان حتى يقوم بمـا قدر لـه من وظائف مهمـة. واللسـان

كأنهما باب يغلق وقت ارتفاع الحاجة إلى فتحه وهو ستر على اللثة والأسنان مفيد للجمال فلولاهما لتشوهت الخلقة وهما معينان على الكلام واللسان للنطق والتعبير عما في ضمير الإنسان وتقليب الطعام والقائه تحت الأضراس حتى يستحكم مضغه ويسهل ابتلاعه.

ثم جعل الأسنان أعداداً متفرقة ولم تكن عظماً واحداً فإن أصاب بعضها ثلم انتفع بالباقي وجمع فيها بين النفع والجمال وجعل ما كان منها معكوساً زائد الشعب حتى تطول مدته مع الصف الذي تحته وجعلها صلبة ليست كعظام البدن لدعاء الحاجة إليها على الدوام وفي الأضراس كبر وتسريف لأجل الحاجة إلى درس الغذاء فإن المضغ هو الهضم الأول.

وجعلت الثنايا والأنياب لتقطيع الطَعام وجمالاً للفم فاحكم أصولها وحدد دروسها وبيض لونها مع حمرة ما حولها وجعلها متساوية الرأس متناسبة التركيب كأنها الدر المنظوم.

ثم انظر كيف خلق في الفم نداوة[٥] محبوسة لا يظهر إلا في وقت الحاجة إليها فلو ظهرت وسالت قبل ذلك لكان تشويهاً للإنسان فجعلت ليبل بها ما يمضغ من الطعام حتى يسهل تسويغه من غير عنت ولا ألم فإذا فقد الأكل عدمت تلك النداوة الزائدة التي خلقت للترطيب وبقي منها ما يبل اللهوات والحلق لتصوير الكلام ولئلا يجفَّ فإن جفافه مهلك للإنسان.

ثم انظر إلى رحمة الله ولطفه إذ جعل للآكل لذة الأكل فجعل الذوق في اللسان وغيره من أجزاء الفم ليعرف بالذوق ما يوافقه ويلائمه من الملذوذ فيجد في

عضو عضلي قوي يساعد في عملية مضغ الطعام إذ إنه يعمل باستمرار على تحريك الطعام من مكان إلى آخر داخل الفم، ويؤهله لذلك تركيبه العضلي ـ فيختلط الطعام الممضوغ باللعاب، ثم يساعد اللسان على بلع الطعام، بالإضافة إلى هذا العمل (الميكانيكي) الذي يؤديه اللسان فإن له عملاً أساساً آخر هو القدرة على التذوق والتعرف على خصائص المواد عن طريق البراعم الذوقية التي يقارب عددها عشرة آلاف برعم. تستقرّ بين خلايا الغشاء المخاطي الذي يغلف اللسان.

(٥) يقصد بها اللعاب الذي تفرزه الغدد اللعابية في الفم، وما لها من أهمية كبرى ودور أساسي في عملية الهضم. وبقدر معلوم حكيم. ولا نتعمق في أي وظيفة من وظائف الجسم إلا ونجد فيها عظمة الصنع والدقة في أداء العمل.

ذلك راحة في الطعام والشراب إذا دعت حاجة إل تناوله وليجتنب الشيء الذي لا يوافقه ويعرف بذلك حد ما تعمل الأشياء إليه في الحرارة والبرودة.

ثم أن الله تعالى شق السمع وأودعه رطوبة مرة يحفظ بها السمع من ضر الدود ويقتل أكثر الهوام الذين يلجون السمع وحفظ الأذن بصدفة لتجمع الصوت فترده إلى صماخها وجعل فيها زيادة حس لتحس بما يصل إليها مما يؤذيها من هوام وغيره وجعل فيها تعويجات ليتطرد فيها الصوت ولتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتأثر ويتنبه صاحبها من النوم.

ثم انظر إلى إدراكه المشمومات بواسطة ولوج الهواء وذلك سر لا يعلم حقيقته إلا الباري سبحانه إلى غير ذلك.

ثم انظر كيف رفع الأنف في وسط الوجه فأحسن شكله وفتح منخريه وجعل فيه حاسة الشم(٦) ليستدل باستنشاقه على روائح مطاعمه ومشاربه ليتنعم بالروائح العطرة ويجتنب الخبائث القذرة وليستنشق أيضاً روح الحياة غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه ثم خلق الحنجرة وهيأها لخروج الأصوات ودور اللسان في الحركات والتقطيعات فيقطع الصوت في مجاري مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع طريق النطق وجعل الحنجرة مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسبب ذلك الأصوات فلم يتشابه صوتان.

كما خلق بين كل صورتين اختلافاً فلم تشتبه صورتان بل يظهر بين كل صورتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت وكذلك يظهر بين كل شخصين فرقان وذاك لسر التعارف فإن الله تعالى لما خلق آدم وحواء خالف بين صورتيهما فخلق منها خلقاً جعله مخالفاً لخلق أبيه وأمه ثم توالى الخلق كذلك لسر التعارف(٧).

---

(٦) الأنف حاسة الشم ويتكون من تجويفين بينهما حاجز بعضه عظم وبعضه غضروف. ويفتح كل تجويف إلى الخارج بمنجر ويتصل من الخلف بالبلعوم.

(٧) إنّ من أهم الإنجازات التي حققها الإسلام، هو إرساء دعائم أمة كبيرة من المسلمين قوامها أجناس عديدة وشعوب متباينة في اللون واللغة والعادات والتقاليد تربط بين أفرادها وشائج الأخوة والتضامن دون إعتبار لعنصر أو إلتفات للون، ودون تمييز أو تفضيل إلا على أساس التقوى وقوة الإيمان ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (سورة الحجرات: الآية (١٣).

ثم انـظر لخلق اليدين وهداهما إلى جلب المقاصدودفع المضاروكيف عرض الكف وقسم الأصابـع الخمس وقسم الأصابـع بأنـامل وجعل الأربعة في جانب والإبهام في جانب فيدور الإبهـام على الجميع فلو اجتمـع الأولون والآخرون على أن يستطيعوا بدقيق الفكر وجهاً آخر من وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربعـة في الطول وترتيبها في صف واحـد لم يقدروا على ذلك وبهذا الوضـع صلح بها القبض والإعـطاء فإن بسـطها كـانت طبقاً يضع عليه ما يريد وإن جمعها كانت آلة يضرب بها وإن ضمها ضماً غيـر تام كـانت مغرفة له وإن بسطها وضـم أصابعه كانت مجرفة.

ثم خلق الأظفـار على رؤسها زينـة للأنـامـل وعمـاداً لهـا من ورائهـا حتى لا تضعف ويلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل لولاها وليحك بها جسمـه عند الحاجة إلى ذلك فانظر أقل الأشياء في جسمه لو عدمها وظهرت به حكـة لكان أضعف الخلق وأعجزهم عن دفع ما يؤلمه وجلب مـا ينتفع بـه في ذلك ولم يقم لـه غير الظفر مقامه في حك جسده لأنه مخلوق لذلك ولغيره فهو صلب كصلابة العظام ولا رخو كرخاوة الجلد يطول ويخلق ويقص ويقصر لمثل ذلـك ثم جعله يهتدي بـه إلى الحك في حالة نومه ويقظتـه ويقصد المواضع إلى جهتهـا من جسده ولـو احتاج إلى غيره واستعان به في حكها لم يعثر الغير على مـواضع الحـاجة إلا بعـد طول تعب.

ثم انـظر كيف مد منـه الفخذين والسـاقين وبسط القدمين ليتمكن بـذلـك من السعي وزين القدمين بالأصابع وجعلهـا زينة وقـوة على السعي وزين الأصابـع أيضاً بالأظفار وقواها بها ثم انظر كيف خلق هـذا كله من نطفـة مهينة ثم خلق منهـا عظام جسده فجعلها أجساماً قوية صلبة لتكون قواماً للبدن وعماداً له وقدرها تبارك وتعـالى بمقـادير مختلفة وأشكال متنـاسقة فمنهـا صغير وطـويل ومستـدير ومجـوف ومصمت وعـريض ودقيق ثم أودع في أنابيب هـذه العظام المـخ الرقيق[٨] مصـاناً لمصلحتهـا وتقويتها.

---

(٨) المخ الرقيق وهو النخاع الشوكي المتصل بالمخ.

ولما كان الإنسان محتاجاً إلى جملة جسمه وبعض أعضائه لتردده في حاجاته لم يجعل الله سبحانه عظامه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة وبينها مفاصل[٩] حتى تتيسر بها الحركة فقدر شكل كل واحد منها على قدر وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أثبتها بأحد طرفي العظم والصق الطرف الآخر كالرباط.

ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منها ومن الآخر نقراً غائصة فيها توافق لأشكال الزوائد لتدخل فيها وتنطبق فصار الإنسان إذا أراد أن يحرك شيئاً من جسده دون غيره لم يمتنع عليه فلولا حكمة خلق المفاصل لتعذر عليه ذلك.

ثم انظر كيف جعل خلق الرأس مركباً من خمس وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور وألف بعضها إلى بعض بحيث استوت كرة الرأس كما ترى.

فمنها ستة تختص بالقحف وأربعة وعشرون للحى الأعلى واثنان للحى الأسفل والبقية من الأسنان بعضها عريض يصلح للطحن وبعضها حاد يصلح للقطع ثم جعل الرقبة مركز الرأس فركبها من سبع خرزات[١٠] مجوفات مستديرة وزيادات ونقصان لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر الحكمة فيها.

ثم ركب الرقبة على الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربعة وعشرين خرزة وعظم العجز ثلاثة أخرى مختلفة وصل به من أسفله عظم العصعص وهو مؤلف من ثلاثة أخرى.

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين فجملة عدد العظام في بدن

---

(٩) وأهمها مفاصل الورك الذي يربط بين رأس عظمة الفخذ ـ وهي عظمة كروية الشكل تقريباً ـ وبين الحُق وهو نقرة في عظام الحوض، ويقوم هذا المفصل بوظيفتين رئيسيتين: **الأولى**: حمل الجسم أثناء الوقوف والحركة. **والثانية**: تحريك الرجلين في جميع الإتجاهات. ولذلك كان لا بد من الأربطة القوية التي تحيط بهذا المفصل لتقوي الجراب المحيط به مما يمنع خلعه وتلك العضلات القوية التي نراها ممتدة من الحوض إلى عظم الفخذ، من هنا كانت القدرة على الحركة والمرونة العالية التي يمتاز بها.

(١٠) تتألف فقرات العنق من سبع خرزات.

الإنسان مائتان وثمانية وأربعون[11] عظماً سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل.

فانظر كيف خلق الباري سبحانه وتعالى ذلك كله من نطفة رقيقة سخيفة والمقصود من ذكر إعدادها تعظيم مدبرها وخالقها وكيف خلقها وخالف بين أشكالها وخصها بهذا القدر المخصوص بحيث لو ازداد فيها واحد كان وبالاً واحتاج الإنسان إلى قلعه ولو نقص منها واحد لإحتاج الإنسان إلى جبره.

فجعل سبحانه وتعالى في هذا الخلق عبرة لأولي الأبصار وآيات بينات على عظمته وجلاله بتقديرها وتصويرها. ثم انظر كيف خلق سبحانه آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة وتسعة وعشرين عضلة والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وحاجاتها فأربعة وعشرون منها لحركة العين وأجفانها بحيث لو نقصت منها واحدة اختل أمر العين.

وهكذا لكل عضو عضلات بعدد يخصه وقدر يوافقه وأما أمر الأعصاب والعروق والأوردة[12] والشرايين ومنابتها وسعتها فأعجب من هذا وشرحه يطول ثم عجائب ما فيه من المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم.

ثم انظر إلى ما شرف به وخص في خلقه بأنه خلق ينتصب قائماً ويستوي جالساً ويستقبل الأمور بيديه وجوارحه ويمكنه العلاج والعمل ولم يخلق مكبوباً على وجهه كعدد من الحيوانات إذ لو كان كذلك لما استطاع هذه الأعمال.

ثم انظر من حيث الجملة إلى ظاهرة هذا الإنسان وباطنه فتجده مصنوعاً صنعة بحكمة يقضي منها بالعجب وقد جعل سبحانه أعضاءه تامة بالغذاء والغذاء

---

(11) وهو بمجموعه الهيكل العظمي ركيزة الجسم البشري الذي يحمي أعضاءه ويحفظ شكله وهو جهاز عظيم في خلقه وتكوينه، وهو عبارة عن نسيج بلاستيكي الشكل ذي تركيبين، أحدهما عضوي والآخر غير عضوي، وهذا النسيج قادر على التغير الجذري مع التقدم في السن وله هذه الخاصية في الشكل والحجم.. وبقدرة الله وعظمته ـ سبحانه ـ تتشكل كل عظمة حسب وظيفتها وإشتراكها في تحمل ومقاومة الأعباء الميكانيكية وهي دائبة التكيف مع هذه الوظيفة حسبما تتغير الظروف، وفي جميع سني العمر وأثناء النمو وبعد البلوغ.

(12) الأوردة: أوعية دموية تحمل الدم من الأجزاء المتطرفة من الجسم إلى القلب.

متوالٍ عليها لكنه تبارك وتعالى قدرها بمقادير لا يتعداها بل يقف عندها ولا يزيد عليها فإنها لو تزايدت يتوالى الغذاء عليها لعظمت أبدان بني آدم وثقلت عن الحركة وعطلت عن الصناعات اللطيفة ولا تناولت من الغذاء ما يناسبها ومن اللباس كذلك ومن المساكن مثل ذلك.

وكان من بليغ الحكمة وحسن التدبير وقوفها على هذا الحد المقدر رحمة من الله ورفقاً بخلقه فإذا وجدت هذا كله صنعة الله تعالى من قطرة ماء فما ظنك بصنعته في ملكوت السموات والأرض وشمسها وقمرها وكواكبها وحكمته في أقدارها وأشكالها وعدادها وأوضاعها واجتماع بعضها وافتراق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها.

فلا تظن أن ذرة في السموات والأرض وسائر عالم الله ينفك عن حكمة بل ذلك مشتمل على عجائب وحكم لا يحيط بجميعها إلا الله سبحانه وتعالى ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾[١٣].

إلى آخر ما نبه به وتأمل لو اجتمع الأنس والجن على أن يخلقوا للنطفة سمعاً وبصراً وحياة لم يقدروا على ذلك فانظر كيف خلقها سبحانه في الأرحام وشكها فاحسن تشكيلها وقدرها فاحسن تقديرها وصورها فاحسن تصويرها وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها ورتب عروقها وأعصابها ودبر ظاهرها وباطنها وجعل فيها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبباً لبقائها مدة حياتها.

ثم كيف رتب الأعضاء الباطنة من القلب والكبد والمعدة والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل عضو بشكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص فجعل المعدة لنضج الغذاء عصباً معيناً شديداً لحاجتها وبذلك يمكن تقطيعه وطحنه وجعل طحن الأضراس أولاً معيناً للمعدة على جودة طحنه وهضمه

---

(١٣) سورة النازعات: الآية (٢٧).

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿أأنتم﴾ أيها الناس ﴿أشدّ خلقاً أم السماء﴾. يعني بل السّماء أشدّ خلقاً منكم كما قال تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾.

وجعل الكبد لإحالة الغذاء إلى الدم فيجذب منه إلى كل عضو من الغذاء ما يناسبه فغذاء العظم خلاف غذاء اللحم وغذاء العروق خلاف غذاء الأعصاب وغذاء الشعر خلاف غذاء غيره وجعل الطاحل والمرارة أو الكلية لخدمة الكبد[1].

فالطحال لجذب السوداء والمرارة لجذب الصفراء والكلية المائية عنه والمثانة لقبول الماء عن الكلية ثم يخرجه في مجرى الإحليل والعروق والكبد في اتصال الدم منه إلى سائر أطراف البدن وجعل جوهرها اتقن من جوهر اللحم ليصونه ويحصره فهي بمنزلة الظروف والأوعية ثم انظر كيف دبره في الرحم ولطف به ألطافاً يطول شرحها ولا يستكمل العلم بجملتها إلا خالقها ويعجز الواصف عن وصف ما وصل إليه نظره من ذلك.

فمن ذلك جعله فيها لا يحتاج إلى استدعاء ولا يحتاج المولود إلى ما يبين ذلك لا بوعظ ولا تنبيه بل ذلك في الطباع إلى وقت حاجة المولود إلى الإغاثة في غذائه ولولا ذلك لنفرت الأمهات عنه من شدة التعب وكلفة التربية حتى اشتد جسمه وقويت أعضاؤه الظاهرة والباطنة لهضم الغذاء فحينئذٍ انبت له الأسنان عند الحاجة إليها لا قبل ذلك ولا بعده.

ثم انظر كيف خلق الله فيه التمييز والعقل على التدريج إلى حين كماله وبلوغه وانظر وفكر في سر كونه يولد جاهلاً غير ذي عقل وفهم فإنه لو كان ولد عاقلاً فهماً لأنكر الوجود عند خروجه إليه حتى يبقى حيران تائه العقل إذا رأى ما لا يعرف وورد عليه ما لم يره ولم يعهد مثله.

ثم كان يجد غضاضة أن يرى نفسه محمولاً وموضوعاً معصباً بالخرق ومسجى في المهد مع كونه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد.

ثم كان لا يوجد من الرقة والحلاوة والمحبة في القلوب ما يوجد للصغير لكثرة اعتراضه بعقله واختياره لنفسه فتبين أن ازدياد العقل والفهم فيه على التدريج أصلح به.

---

(١٤) الكبد هو أكبر غدة في الجسم، ويفرز مادة الصفراء التي تسيل إلى الأمعاء وتقوم بدور هام في عمليات هضم الدهون ويقوم بتحويل سكر الجلوكوز الذائب في الدم إلى نوع من النشا يسمى جليكوجين. ويختزن الكبد أيضاً فيتامين (د) المضاد لمرض لين العظام.

أفلا يرى كيف أقام كل شيء من الخلقة على غاية الحكمة وطريق الصواب واعلمه تقلب الخطأ في دقيقه وجليله ثم انظر فيما إذا اشتد خلق فيه طريقاً وسبباً للتناسل وخلق في وجهه شعر ليميّزه عن شبه الصبيان والنسوان ويجمله ويستر به غصون وجهه وعند شيخوخته وإن كانت أنثى أبقى وجهها نقياً من الشعر لها بهجة ونضارة تحرك الرجال لما في ذلك من بقاء النسل.

فكر الآن فميا ذكرناه ودبره سبحانه في هذه الأحوال المختلفة هل ترى مثل هذا يمكن أن يكون مهملاً أرأيت لو لم يجر له الدم غذاء وهو في الرحم ألم يكن يذوي ويهلك ويجف النبات إذا انقطع عنه الماء.

ولو لم يزعجه المخاض[١٥] عند استكماله ألم يكن يهلك ببقائه في الرحم هو وأمه ولو لم يوافه اللبن عند ولادته ألم يكن يموت جوعاً وعطشاً أو يغذى بما لا يوافق ولا يصلح عليه بدنه ولو لم يخلق له الأسنان في وقتها ألم يكن يمتنع عليه مضغ الطعام وإزدراده ويقيم على الرضاع ولا يشتد جسمه ولو لم يخرج له شعر الوجه لبقي في هيئة النساء والصبيان فلا ترى له هيبة ولا جلالة ولا وقار ومن ذا الذي يرصده حتى يوفيه بكل هذه المآرب في وقتها إلا الذي أنشأه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً وتفضل عليه ومنّ عليه بكل هذه النعم.

فكر في شهوة الجماع الداعية لإحيائه والآلة الموصلة إلى الرحم المنطقة والحركة الموجبة لإستخراج النطفة وما في ذلك من التدبير المحكم.

ثم فكر في جملة أعضاء البدن وتهيئة كل عضو منها للأرب الذي أريد منها فالعينان للإهتداء بالنظر.

واليدان للعلاج والجذب والدفع.

والرجلان للسعي.

والمعدة لهضم الطعام.

---

(١٥) إن عملية المخاض عند المرأة عند إستكمال نمو الجنين فيها من الحكمة والعبرة والتدبير ما يعجز الإنسان عن فهمه وشرحه. فشعور الأم بالآلام الحادة والإقتراب من الموت يتقلب فجأة إلى فرح وسعادة عند سماع بكاء الطفل في إطلالته على الدنيا.. إنها أخرجت جسماً وروحاً من جسمها وروحها لإستمرارية دورة الحياة، والله عليم خبير.

والكبد للتخليص والتمييز.

والفم للكلام ودخول الغذاء والمنافذ لدفع الفضلات.

وإذا تأملت كذلك مع سائر ما في الإنسان وجدته قد وضع على غاية الحكمة والصواب.

فكر في وصول الغذاء إلى المعدة[16] حتى ينضجه ويبعث صفوه إلى الكبد في عروق دقاق قد جعلت كالمصفاة للغذاء ولكيلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها فإنها خلقت دقيقة لا تحمل الغث فتقبله بإذن الله دماً وتنفذ إلى سائر البدن في مجار مهيأة لذلك فيصل إلى كل شيء من ذلك ما يناسبه من يابس ورخو وغير ذلك فتبارك الله رب العالمين.

ثم ينفذ ما يكون من خبث وفضول إلى معابض وأعضاء أعدت لذلك كما ذكرنا قبل هذا فكونها كالأوعية تحمل هذه الفضلات لكيلا تنتشر في البدن فتسقمه ثم انظر هل تجد في خلق البدن شيئاً لا معنى له هل خلق البصر إلا ليدرك الأشياء والألوان فلو كانت الألوان ولم يكن بصر يدركها هل كان في الألوان منفعة ولو لم يكن لخلق الأبصار نور خارج عن نورها ما كان ينتفع بالبصر وهل خلق السمع إلا ليدرك الأصوات.

فلو كانت الأصوات ولم يكن سمع يدركها لم يكن في الأصوات منفعة كذلك سائر الحواس.

فكر في أشياء جعلت بين الحواس والمحسوسات لا يتم الحس إلا بها منها الضياء والهواء فلو لم يكن ضياء تظهر فيه المبصرات لم يدركها ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السّمع لم يكن السمع يدرك الصوت. فكر فيمن عدم البصر والسمع وما يناله من الخلل فإنه لا ينظر أين يضع قدمه ولا يدري ما بين يديه ولا

---

(١٦) المعدة. وهي جزء متّسع من المسلك الهضمي، يقع في أعلى البطن، معظمه إلى اليسار تحت الكبد والحجاب الحاجز الذي يفصله عن القلب والرئة اليسرى وتتدلى المعدة من أعلى المريء ومن أسفل بالمعي الإثني عشر، وجدار المعدة يتألف من غشاء مخاطي هو الذي يفرز العصارة الهضمية. والمعدة تختزن الطعام لمدة يجري في أثنائها البدء في عمليات الهضم.. وإذا دخل المعدة ما يهيج الغشاء المخاطي فإنها لا تستريح إلا بالقيء

يفرق بين الألوان ولا يدري بهجوم آفة أو عدو ولا سبيل له أن يتعلم أكثر الصناعات وأما من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة الأصوات المستحسنة والألحان المطربة وتعظم المؤونة علىامن يخاطبه حتى ينصر منه ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم حتى يصير كالغائب وهو شاهد وكالميت وهو حي.

وأما من عدم العقل فهو شر من البهائم فانظر كيف صارت هذه الجوارح وهذه الأوصاف التي بها صلاح الإنسان محصلة ومبلغة لجميع مآربه ومتممة لجميع مقاصده وإذا فقد شيئاً اختل وعظم مصابه ومن بلى بفقد شيء منها فهو تأديب وموعظة وتعريف بقدر نعمة الله في حقه وحق أمثاله ولينال بصبره على ذلك حظاً في الآخرة فانظر إلى رحمة الله كيف توجد في العطاء والمنع.

ثم فكر في الأعضاء التي خلقت أفراداً وأزواجاً وما في ذلك من الحكمة والصواب فالرأس مما خلق فرداً كثيراً من الحواس قد حوتها رأس واحدة ولو زاد عليه شيء كان ثقلاً لا يحتاج إليه فإن كان قسمين فإن تكلم أحدهما بقي الآخر معطلاً لا حاجة إليه وإن تكلم منهما جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلة لا يحتاج إليها وإن تكلم من أحدهما بخلاف ما تكلم به من الآخر لم يدر السامع مراده من ذلك وإنما الذي يأخذ به السامع هو ما كان واضحاً واليدان خلقتا أزواجاً ولم يكن للإنسان خير في أن يكون بيد واحدة لاختلال ما يعالجه من الأمور فإنك ترى من شلت إحدى يديه ما يكون عنده من النقص وإن يكلف بشيء لم يحكمه ولا يبلغ ما يبلغ صاحب اليدين وحكمة الرجلين ظاهرة.

فكر في تهيئة آلات الصوت فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لإصاغة الحروف والفم ألا ترى أن من سقطت أسنانه أو أكثرها كيف يحصل الخلل في كلامه.

ثم انظر إلى ما في الحنجرة من المنفعة لسلوك النسيم منها إلى الرئة فتروح على الفؤاد بهذا النفس المتتابع وما في اللسان من تقليب الطعام وإعانته على تسويغ الطعام والشراب وما في الأسنان من المعونة أيضاً ثم هي كالسند للشفتين تمسكهماوتدعمهمامن داخل الفم وبالشفتين يرتشف الشراب حتى يكون ما يدخله إلى الجوف بقصد وبقدر ما يختاره الإنسان ثم هما على الفم كالباب فقد تبين أن كل عضو من هذه الأعضاء ينصرف إلى وجوه من المآرب وضروب من المصالح إن

زاد أفسد وإن نقص أفسد فذلك تقدير العزيز العليم.

فكر في الدماغ إذا كشف عنه فإنك تجده قد لف بعضه فوق بعض ليصونه من الأعراض وأطبقت عليه الجمجمة والشعر ستر لها وجمال وليبعد عنها ما يؤذيها من حر وبرد وغير ذلك فحصن سبحانه وتعالى الدماغ هذا التحصين لعلمه بأنه مهم وأنه مستحق لذلك لكونه ينبوع الحس.

ثم انظر كيف غيب الفؤاد في جوف الصدر وكساه المدرعة التي هي غشاؤه واتقنها وحصنه بالجوانح وما عليها من اللحم والعصب لشرفه وإن ذلك اللائق به.

ثم انظر كيف جعل في الحلق منفذين أحدهما للصوت وهو الحلقوم الواصل إلى الرئة والآخر للغذاء وهو المريء الواصل إلى المعدة وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل إليه ثم جعل الرئة مروحة للفؤاد لا تفتر ولا تخل تأخذ وترد بغير كلفة لئلا تنحصر الحرارة في القلب فتؤدي إلى التلف ثم ملأ الجو هواء لهذه المصلحة ولغيرها.

ثم انظر كيف جعل لمنافذ البول والغائط أسراحاً يضبطها لكي لا يجري جرياناً دائماً فيفسد على الإنسان عيشته.

ثم انظر كيف جعل لحم الفخذين كثيراً كثيفاً ليقي الإنسان من ألم الجلوس على الأرض كما يألم الجلوس من نحل جسمه وقل لحمه إذا لم يكن بينه وبين الأرض حائل.

انظر لو كان ذكر الرجل مسترخياً أبداً كيف يصل الماء إلى موضع الخلق ولو كان منعظاً أبداً كيف يكون حاله في تصرفاته وهو كذلك بل جعله مستوراً كأنه لم تخلق له شهوة.

ثم انظر أليس أنه من حسن التدبير في البناء أن يكون الخلاء أستر موضع في الدار فلهذا اتخذ المنفذ المهيأ لقضاء حاجة الإنسان في أستر موضع من جسده مغيب فيه تلتقي عليه فخذاه بما عليهما من اللحم فتواريه به ويخفى ذكره وذلك مخصوص بالإنسان لشرفه.

ثم انظر في خلق الشعر والأظفار لما كانا يطولان وفي تقصيرها مصلحة جعلا عديمي الحس حتى ينال الإنسان ألم عند التزين بقصهما ولولا هذه الحكمة لكان

بين أمرين أما أن يدعهما على حالهما فيتشوه خلقه أو يزيل ذلك فيتألم بإزالته.

ثم تفكر في الشعور لو نبتت في العين لأعمت البصر أو في الفم لنغصت الأكل والشرب أو في راحة الكف لفقدت لذة اللمس وبعض الأعمال أو في الفرج لكدرت لذة الجماع مع قبول هذه المواضع لنباتها فيها فسبحان المدبّر المنعم بهذه النعم.

فانظر كيف قصد بهذا الخلق طريق الصواب وتجنب الخطأ والضرر ثم فيما جبل عليه الإنسان من الإحتياج إلى المطعم والنوم والجماع وما في ذلك من التدبير المحكم فقد جعل في طبعه محرك يقتضيه ويستحثه فالجوع والعطش يقتضي طلب الطعام الذي به حياته وكذلك الشراب الذي به قوامه والنوم فيه راحة البدن وعموم القوى والشبق يقتضي الجماع الذي به دوام النسل وبقاؤه فلو كان الإنسان إنما يتناول الطعام والشراب لمعرفته بالحاجة إليه ولم يجد من طباعه ما يلجئه إليه لإشتغل بأسباب ضرورته فتنحل قواه ويهلك كما أنه قد يحتاج إلى دواء يكرهه وفيه صلاحه وليس في جبلته داعية له فيدافع في تناوله فيمرض أو يموت فكذلك لو كان يفعل النوم ويدخله على جسمه باختياره لتشاغل عنه ببعض مهماته فيهلك جسمه بالتعب والنصب.

وكذلك لو كان إقدامه على الجماع إنما هو لرغبة حصول الولد لإنقطع النسل لما يعارضه من الأسباب المشغلة فانظر كيف جعل في بالطبع ما يضطره إلى حصول هذه الفوائد.

انظر كيف رتبت هذه القوى بهذا الترتيب المحكم العجيب فصار البدن بما فيه بمنزلة دار الملك فيها حشم وقوم موكلون بالدار فواحد لإمضاء حوائج الحشم وإيراد ماء لهم وآخر لقبض ما يرد وخزنه إلى أن يعالج ويهيأ وآخر لإصلاح ذلك وتهيئته وإصلاحه مما قيل وآخر لكسح ما في الدار من الأقذار وإخراجه فالملك في هذا المثل هو الخالق العليم سبحانه والدار هي البدن والحشم هي الأعضاء والقوم في هذه القوى الأربع التي هي النفس وموقعها من الإنسان بمعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ والغضب رغير ذلك أرأيت لو نقص من الإنسان من هذه الصفات الحفظ وحده كيف كان يكون حاله إن كان لا يحفظ ما له وما عليه وما أصدر وما أورد وما أخذ وما رأى وما سمع وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ولا من أساء له ولا من نفعه ممن ضره وكان لا يهتدي لطريق ولو سلكه ولا لعلم ولو درسه

ولا ينتفع بتحريره ولا يستطيع أن يعتبر بمن مضى.

فانظر إلى هذه النعم كيف موقع الواحدة منها فكيف جميعها. وأعجب من نعمة الحفظ نعمة النسيان فلولا النسيان ما سلا الإنسان عن مصيبة فكان لا ينقص له حسرة ولا يذهب عنه حقد ولا يستمتع بشيء من لذات الشهوات الدنيوية مع تذكر الآفات والفجائع المغضبات وكان لا يمكن أن يتوقع غفلة من ظالم ولا فترة ولا ذهولاً من حاسد أو قاصد مضرة.

فانظر كيف جعل الله فيه سبحانه الحفظ والنسيان[١٧] وهما متضادان وجعل للإنسان في كل منهما ضروباً من المصالح. ثم انظر إلى ما خصه به دون غيره من الحيوان من الحياء فلولاه لم تقل العثرات ولم تقض الحاجات ولم يقر الضيف ولم يرغب في الجميل فيفعل ولا يتجافى عن القبيح فيترك حتى أن كثيراً من الأمور الواجبة إنما تفعل لسبب الحياء من الناس فترد الأمانات وتراعى حقوق الوالدين وغيرهما ويعف عن فعل الفواحش إلى غير ذلك من أجل الحياء فانظر ما أعظم موقع هذه النعمة في هذه الصفة.

وانظر ما أنعم الله به من النطق الذي يميز به عنه البهائم فيعبر بما في ضميره ويفهم من غيره ما في نفسه. وكذلك نعمة الكتابة التي تفيد أخبار الماضين للباقين وأخبار الباقين للآتين وبها تخلد في الكتب العلوم والآداب ويعلم الناس ذكر ما يجري بينهم في الحساب والمعاملات ولولا الكتابة لإنقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست العلوم وضاعت الفضائل والآداب وعظم الخلل الداخل على الناس في أمورهم بسبب عدمها فإن قلت إن الكلام والكتابة مكتسبة للإنسان وليست بأمر طبيعي ولذلك تختلف الخطوط بين عربي وهندي ورومي إلى غير ذلك وكذلك الكلام هو شيء يصطلح عليه فلذلك اختلف.

---

(١٧)يعتبر الدماغ ـ مصدر الذكاء والمكان الذي تحفظ فيه الذاكرة ـ أهم وأعقد أجهزة الجسم، وهو عبادة عن نسيج شديد الرخاوة والليونة، وتؤمن عظام الجمجمة القوية الحماية للدماغ من المؤثرات الخارجية.

إن عملية حفظ المعلومات في الدماغ ثم استرجاعها عند الحاجة، عملية معقدة وتتمّ ـ أساساً ـ في القشرة الدماغية المخية، وهنالك مناطق في الدماغ لخزن المعلومات للمدى القصير، ومناطق أخرى مخصصة لخزن المعلومات للمدى الطويل، وفي كل منهما ضروباً من المصالح فسبحان المنعم بهذه النعم.

قلنا ما به تحصل الكتابة من اليد والأصابع والكف المهيأ للكتابة والذهن والفكر الذي يهتدي به ليس بفعل الإنسان ولولا ذلك لم يكن ليكتب أبداً فسبحان المنعم عليه بذلك وكذلك لولا اللسان والنطق الطبيعي فيه والذهن المركب فيه لم يكن ليتكلم أبداً فسبحان المنعم عليه بذلك.

ثم انظر إلى حكمة الغضب المخلوق فيه يدفع عن نفسه به ما يؤذيها وما خلق فيه من الحسد فبه ما يسعى في جلب ما ينتفع به غير أنه مأمور بالإعتدال في هذين الأمرين فإن جاوز الحد فيهما التحق برتبة الشياطين بل يجب أن يقتصر في حالة الغضب عن دفع الضرر وفي الحسد على الغبطة وهي إرادة ما ينفعه من غير مضرة تلحق غيره.

ثم انظر ما أعطى وما منع مما فيه أيضاً صلاحه فمن ذلك الأمل فبسببه تعمر الدنيا ويدوم النسل ليرث الضعفاء عن الأقوياء منافع العمارة فإن الخلق أول ما يخلق ضعيف فلولا أنه يجد آثار قوم أصلوا وعمروا لم يكن له محل يأوي إليه ولا آلة ينتفع بها فكان الأمل سبباً لعمل الحاضرين ما يقع به إنتفاع الآتين وهكذا يتوارث إلى يوم الدين ومنع الإنسان من علم أجله ومبلغ عمره لمصلحة فإنه لو علم مدة حياته وكانت قصيرة لم تهنه الحياة ولم ينشرح لوجود نسل ولا لعمارة أرض ولا لغير ذلك ولو علمها وكانت طويلة لإنهمك في الشهوات وتعدى الحدود واقتحم المهلكات ولعجز الوعاظ عن إيقافه وزجره عما يؤديه إلى إتلافه فكان في جهله بمدة عمره مصلحة حصول الخوف بتوقع هجوم الموت ومبادرة صالح الأعمال قبل الفوت.

ثم انظر إلى ما ينتفع به مما فيه مصالحه وملاذه من أصناف الأطعمة على اختلاف طعومها وأصناف الفواكه مع اختلاف ألوانها وبهجتها وأصناف المراكب ليركبها ويحصل منافعها وطيور يلتذ بسماعها ونقود وجواهر يقتنيها ويصل إلى أغراضه ويجدها في مهماته وعقاقير يستعملها لحفظ صحته وبهائم لمأكله ولغير ذلك من أموره من حرث وحمل وغير ذلك وأزهار وغيرها من العطريات يتنعم بروائحها وينتفع بها وأصناف من الملابس على اختلاف أجناسها وكل ذلك ثمرة ما خلق فيه من العقل والفهم ماذا ركب الله فيه من العجائب؟

ومن الحكمة البالغة اختلاف العباد في تملك ما ينتفع به بنو آدم ليتميز منهم

الفقير عن الغني فيكون ذلك سبباً لعمارة هذه الدار ويشتغل الناس بسبب ذلك عما يضرهم في غالب الأحوال فمثالهم فيما اشتغلوا به مثال الصبي فإنه يشتغل لنقص عقله فيما يضر به نفسه ولا يتفرغ فيكون فراغه وبالاً عليه وكم عسى أن يعد العاد من الحكم واللطائف التي يقصد بها قوام العالم وبقاؤه إلى الأجل المعلوم وهي مما لا تدخل تحت حد ولا يحصرها عد ولا يعلم منتهى حقائقها وإحصاء جملتها إلا الحكيم العليم الذي وسعت رحمته وعلمه كل شيء وأحصى كل شيء عدداً.

خاتمة هذا الباب

اعلم أن الباري سبحانه وتعالى شرف هذا الآدمي وكرمه فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(١٨).

فكان من اعسم - شرفه به وكرّمه العقل الذي تنبه به على البهيمة وألحقه بسببه بعالم الملائكة حتى تأهل به لمعرفة باريه ومبدعه بالنظر في مخلوقاته والإستدلال به على معرفة صفاته بما أودعه في نفسه من حكمة وأمانة قال الله العليم:

---

(١٨) سورة الإسراء: الاية (٧٠).

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوان يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء وخواصها ومضارّها في الأمور الدِّينيّة والدّنيويّ، ﴿وحملناهم في البرّ﴾ أي على الدّواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي البحر أيضاً على السّفن الكبار والصغار، ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من زرع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي، ﴿وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدلّ بهذه الآية الكريمة على

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[(١٩)].

فكان نظره في نفسه وفيما أودع الباري سبحانه فيه من العقل الذي يقطع بوجوده فيه ويعجز عن وصفه من أعظم الدلالات عنده على وجود باريه ومدبره وخالقه ومصوره فإنه ينظر في العقل وكيف فيه التدبير وفنون العلم ومستقر المعرفة وبصائر الحكمة والتمييز بين النفع والضر وهو مع القطع بوجوده لا يرى له شخصاً ولا يسمع له حساً ولا يجس له مجساً ولا يشم له ريحاً ولا يدرك له صورة ولا طعماً وهو مع ذلك آمر ومطاع وراج ومفكر ومشاهد للغيوب ومتوهم للأمور اتسع له ما ضاق عن الأبصار ووسع له ما ضاقت عنه الأوعية يؤمن بما غيبته حجب الله سبحانه مما بين سمواته وما فوقها وأرضه وما تحتها حتى كأنه شاهده أبين من رأى العين فهو موضع الحكمة ومعدن العلم كلما ازداد علماً إزداد سعة وقوة يأمر الجوارح بالتحرك فلا يكاد أن يميز بين الهمة بالحركة وبين التحرك بسرعة الطاعة أيهما أسبق وإن كانت الهمة قبل وهو مع تدبيره وعلمه وحكمته عاجز عن معرفة نفسه إذ لا يمكنه أن يصف نفسه بنفسه بصفه وهيئة أكثر من الإقرار بأنه مسلم للذي وصفه للعلم به ومقر بالجهل بنفسه وهو مع جهله بنفسه عالم حكيم يميز بين لطائف التدبير ويفرق بين دقائق الصنع.

وتجري الأمور وقد تدبرها ويتوهم العواقب ويمثلها ويدل على الأمور على اختلافها فدل جهله بنفسه وعلمه بما يدبر ويميز أنه مركب مصنوع مصور ومدبر مقهور لأنه مع حكمته واتقاد بصيرته عاجز مهين يريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينساه فيذكره ويريد أن يسر فيحزن ويريد أن يغفل فيذكر ويريد أن يتنبه ويتيقظ فيسهو ويغفل دلالة على أنه مغلوب مقهور وهو مع ما علم جاهل بحقائق ما علم ومع ما دبر لا يدري كم مدى مبلغ صوته ولا كيف خروجه ولا كيف إتساق حروف كلامه ولا كم مدى مبلغ نظره ولا كيف ركب نوره ولا كيف أدرك الأشخاص ولا كم قدر قوته ولا كيف تركب إرادته وهمته فاستدل بعلمه وجحده عن حقيقة ما علم أنه مصنوع بصنعة متقنة وحكمة بالغة تدل على الصانع الخالق المريد العليم عز وجل.

ثم خلق في الإنسان الهوى موافقاً لطباعه فإن استعمل نور العقل فيما أمر به

افضليّة البشر على جنس الملائكة. مختصر ابن كثير.

(١٩) سورة الذاريات: الآية (٢١).

قال قتادة: من تفكّر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

ورد مورد السلامة وفاز غداً بدار الكرامة وإن استعمله في أغراض نفسه وهواها حجب عن معرفة أمور لا يدركها غيره مع ما هو متوقع له في الدار الآخرة من الثواب والحجاب والعقاب وهو الآلة له في عمل الصنائع وتقديرها على نحو ماقدرهاودبرها في ذهنه وتخيله واستنباط ما يستنبط بدقيق الفكر ومعرفة مكارم الأخلاق الموجودة في كل أمة وزمان أو استحسان ما يحسن في عوائد العقلاء والفضلاء وتقبيح ما يقبح عندهم بحكم الإعتياد.

فانظر ما شرف هذا الإنسان أن خلق فيه ما تفيده هذه المعارف فإن الأواني تشرف بشرف ما يوضع فيها ولما كانت قلوب العباد هي محل للمعرفة بالله سبحانه شرفت بذلك ولما سبق في علم الباري سبحانه وإرادته وحكمه بمصير الخلق إلى دار غير هذه الدار ولم يجعل في قوة عقولهم ما يطلعون به على أحكام تلك الدار بل كمل لهم سبحانه هذا النور الذي وهبهم إياه بنور الرسالة إليهم فأرسل الأنبياء صلوات الله عليهم مبشرين لأهل طاعته منذرين لأهل معصيته فمدهم بالوحي وهيأهم لقبوله وتلقيه فكانت أنوار ما جاء به الوحي من عند الله بالنسبة إلى نور العقل كالشمس بالإضافة إلى نور النجم فدلوا العباد على مصلح دنياهم فيما لا تستقل بإدراكه عقولهم وأرشدوهم إلى مصالح أخراهم التي لا سبيل للعباد أن يعرفوها إلا بواسطتهم وأظهر لهم سبحانه من الدلائل على صدق ما جاؤا به ما أوجب الأذعان والإنقياد لصدق أخبارهم فتمت بذلك نعمة الله على عباده وظهرت كرامته وثبتت حجته عليهم.

فانظر ما أشرف الآدمي ونسله الذين ظهرت منه هؤلاء الفضلاء الذين هم قابلون هذه الزيادات الفاضلة ثم تضافرت الشرائع[٢٠] التي هي كالشمس وأنوار

---

(٢٠) من هذه الشرائع، الصوم ـ وهو عبادة روحية خالصة، وليس لهذه العبادة مظهر إيجابي يمكن الإستهداء به لأدائها، كما هو شأن سائر العبادات والشعائر لأن قوامها كف النفس عن مشتهياتها الحلال، فكانت عبادة سرية بين العبد وربه، تمثل سريتها عنصر المراقبة المستكن في ضمير المؤمن لله تعالى.

فالحكمة الغائية للصوم موصولة بأصالة عقيدة التوحيد وما يستوجب ذلك من الإيمان بعقائد الإسلام وبالقيم التي تنبع منها، وإمتثال أمر الله تعالى في كل ما شرع، مما يتعلق بصلاح الفرد نفسه خاصة وما يتعلق بالأمة، بل والمجتمع البشري عامة.

كما أن الصوم مجاهدة نفسية واقعية تؤول إلى تجرد روحي، وتفتح عقلي، وإشراق

العقول التي هي كالنجم فتمت سعادة من سبق له من الله الحسنى وشقاوة من كذب ولم يرد إلا الحياة الدنيا.

ثم أن الله تبارك وتعالى منّ على الإنسان بأن خصه برؤيا يراها في منامه أو في عينه كشبه المنام بمثل له فيهم بأمثلة معهودة من جنس ما يعرفه وهي مبشرة أو منذرة [1]اله لما يتوقعه بين يديه كل ذلك مواهب وكرامات من وجود الله سبحانه وجعل استقامته على الطاعة في قلبه وجوارحه سبباً لصدقها في غالب الأمر ليتعظ أو يقدم على الأمور أو يحجم عنها وهي الأمور التي انفرد الله بعلم العاقبة فيها واطلع على بعض الأمور منها من يشاء.

نفسي، وقد إتخذه الله تعالى وسيلة فعالة لتمكين العقل والنفس من إجتلاء تلك البينات التي قوامها شواهد وأدلة إقناعية تنهض بالحقائق الكبرى في هذا الوجود وعلى رأسها الإيمان بالخالق البارىء جلّ وعلا، وما يفيض عنها من القيم العليا والمثل الخالدة: من الحق، والعدل، والحرية، والمساواة في الإعتبار الإنساني، والرحمة والإحسان، والفضل، والتضحية والجهاد، وإنكار الذات.

(٢١) إن الله سبحانه هو الخالق لجميع ما يُرى في المنام من خير أو شر، وإن الاختلاف الموجب للغسل مضاف إلى الشيطان.

وقال الإستاذ أبو سعد الواعظ (رضي الله عنه) أما بعد، فإنه لما كانت الرؤيا صحيحة في الأصل منبئة عن حقائق الأعمال، منبهة على عواقب الأمور إذ منها الآمرات والزاجرات، ومنها المبشرات والمنذرات وكيف لا تكون كذلك وهي من بقايا النبوة، فإن من الأنبياء (صلوات الله عليهم) من كان وحيه الرؤيا فهو نبي. (عن كتاب ابن سيرين).



باب
في حكمة خلق الطير

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

اعلم رحمك الله أن الله تعالى خلق الطير وأحكمه حكمة تقتضي الخفة للطيران ولم يخلق فيه ما يثقله وخلق فيه ما يحتاج إليه وما فيه قوامه وصرف غذاءه فقسم لكل عضو منه ما يناسبه فإن كان رخواً أو يابساً أو بين ذلك انصرف إلى كل عضو من غذائه ما هو لائق به فخلق للطير الرجلين دون اليدين لضرورة مشيه وتنقله وإعانة له في ارتفاعه عن الأرض وقت طيرانه وجعلها واسعة الأسفل ليثبت في موطن على الأرض وهي خف فيه أو بعض أصابع مخلوقة من جلد رقيق صلب من نسبة جلد ساقيه وجعل جلد ساقيه غليظاً متقناً جداً ليستغني به عن الريش في الحر والبرد.

وكان من الحكمة خلقه على هذه الصفة لأنه في رعيه وطلب قوته لا يستغني عن

---

(١) سورة النحل: الآية (٧٩).

نبّه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخّر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء ما يملكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك وسخّر الهواء يحملها. مختصر ابن كثير.

مواضع فيها الطين والماء فلو كسيت ساقاه بريش لتضرر ببلله وتلويثه فأغنا سبحانه عن الريش في موضع لا يليق به حتى يكون مخلصاً للطيران وما خلق من الطير ذا أرجل طوال جعلت رقبته طويلة لينال غذاءه من غير حرج بها إذ لو طالت رجلاه وقصر عنقه لم يمكنه الرعي لا في البراري ولا في البحار حتى ينكب على صدره وكثيراً ما يعان بطول المنقار أيضاً مع طول العنق ليزداد مطلبه عليه سهولة ولو طال عنقه وقصرت رجلاه أثقله عنقه واختل رعيه وخلق صدره وجعل دائره ملفوفاً مرتباً على عظم كهيئة نصف دائرة حتى يخرق في الهواء بغير كلفة.

وكذلك رؤوس أجنحته مدورة إعانة له على الطيران وجعل لكل جنس من الطير منقاراً يناسب رعيه ويصلح لما ينغذى به من تقطيع ولقط وحفر وغير ذلك فمنه مخلب للتقطيع خص به الكواسر وما قونه اللحم ومنها عريض مشرشر جوانبه تنطبق على ما يلتقطه انطباقاً محكماً ومنه معتدل اللقط لأكل الخضر ومنه طويل المنقار للحفر وجعله صلباً شديداً شبه العظم وفيه ليونه ما هي في العظم لكثرة الحاجة إلى استعماله وهو مقام الأسنان في غير الطير من الحيوان.

وقوى سبحانه أصل الريش وجعله قصباً منشوباً فيما يناسبه من الجلد الصلب في الأجنحة لأجل كثرة الطيران ولأن حركة الطيران قوية فهو محتاج إلى الأتقان لأجل الريش وجعل ريشه وقاية مما يضره من حر أو برد ومعونة لتخلله الهواء للطيران وخص الأجنحة بأقوى الريش وأثبته وأتقنه لكثرة دعاء الحاجة إليه وجعل في سائر بدنه ريشاً غيره كسوة ووقاية وجمالاً له وثبت أصل جميعه لأنه جبيرته وجماله وجعل في ريشه من الحكمة أن البلل لا يفسده والأدران لا توسخه فإن أصابه ما كان أيسر انتفاض يطرد عنه بلله فيعود إلى خفته وجعل له منفذاً واحداً للولادة وخروج فضلاته لأجل خفته وخلق ريش ذنبه معونة له على استقامته في طيرانه فلولاه لما مالت به الأجنحة في حال الطيران يميناً وشمالاً فكان له بمنزلة رجل السفينة الذي يعدل بها سيرها وخلق في طباعه الحذر وقاية لسلامته ولما كان طعامه يبتلعه بلعاً بلا مضغ جعل لبعضه منقاراً صلباً يقطع به اللحم ويقوم له مقام ما يقطع بالمدية وصار يزدرد ما يأكله صحيحاً وأعين بفضل حرارة في جوفه تطحن العنب وغيره فإنه يخرج من بطون الحيوان صحيحاً وينسحق في أجواف الطير ثم أنه خلقه يبيض ولا يلد لئلا يثقل عن الطيران فإنه لو خلقت فراخه في جوفه حتى يكمل خلقها لثقل بها وتعوق بها عن النهوض للطيران.

أفلا ترى كيف دبر كل شيء من خلقه بما يليق به من الحكمة انظر إلى من أنزله وألهمه الرقاد على بيضه فيحضنه مدة الحضانة[٢] من ألهمه أن يلتقط الحب فإذا ماع في باطنه غذى به فراخه وهذا نوع من الطير ثم انظر هذا كيف احتمل هذه المشقة وليست له روية ولا فكر في عاقبة ولا أمل يأمله في أفراخه كما يأمل الإنسان في ولده من العز والرفد وبقاء الذكر فهل هذا قطعاً إلا الهام من فعل الله سبحانه.

انظر كيف ألهم معرفة حمل الأنثى منه بالبيض فالهموا حينئذٍ حمل الحشيش وتوطئته في موضع التحضين والولادة لتكون الرطوبة والتوطئة تحفظ البيض ويكون البيض محفوظاً في المهاد الذي يمهدونه ويستحسنونه في حال تحضينه.

انظر إلى الحمام كيف ألهم معرفة كمال الفرخ وانتهاء تحضينه للبيض حتى يكشف عن الفرخ ويخرجه وإن اتفق في البيض فساد بسبب عرق قام وتركه ثم انظر الهامه بما يزق به فرخه فإنه أولاً يزقه بالريح[٣] لتستعد حوصلته لقبول ما يوضع فيها ثم بعد ذلك يزقه من أول هضم ثم إذا ماع الغذاء في حوصلته يزقه به حتى يدرجه ويفعل ذلك مراراً حتى يملأ حوصلته فإنه لو أوصله إليه حباً صحيحاً لعجز عن هضمه لضعف جسده فانظر إن كان هذا من فعل الطير وحكمته.

ثم انظر عند خروج الفرخ من البيض كيف يسنده إلى جنبه لئلا يفقد الحرارة دفعة واحدة فيضر ذلك به ومن الطير ما يخلق على هيئة إخرى لحكمة أخرى ولتعلم أن قدرة الله لا تنحصر في نوع واحد بل كل حال له حكم يقوم بمصلحة ذلك الشيء وذلك أن الدجاج ما فيهم أهلية الزق بل جعلت فراخهم يلتقطون غذاءهم عند خروجهم من البيضة. ثم انظر في الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين خوف أن يفسد بيضهم فيعقب هذا صاحبه كأن لهم علماً بأن عدم هذا التدبير يفسد به بيضهم.

ثم انظر إلى خلق البيضة[٤] وما فيها من الحكم لله ففيها الماء الأصفر الخاثر

---

(٢) تبقى البيضة في الحضن مدة ٢١ يوماً وعند درجة حرارة ٣٨ درجة. مئوية كي يتحول الجنين إلى كائن حي له كيان واضح.

(٣) يطعم فرخه وبواسطة منقاره مادة مهضومة أشبه ما تكون باللبن عند الثدييات هذا عند الحمام، بعكس الدجاج فإن فراخها تلتقط الحب عند خروجها من البيضة.

(٤) خلق سبحانه البيض بنظام متكامل، وجعله بقدرته مرحلة لنقل الحياة واستمرار تدفقه في

والماء والأبيض الرقيق فبعضه لينشأ منه جسده وبعضه يتغذى به إلى أن ينشق عنه وما في ذلك التدبير من الحكم العجيبة وكيف جعل معه غذاءه في (بيضة مغلقة تلتقي به إلى حين كماله فيها وخروجه منها ثم انظر في حوصلة الطائر وما في خلقها من التدبير فإن مسلك طعامه إلى القانصة ضيق لا ينفذ إليه إلا قليلاً قليلاً فلو كان لا يلتقط حبة حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال الأمر عليه مع ما فيه من شدة الحذر وتجنبه ما يؤذيه فصار ما يحتكره احتراساً لشدة حذره فجعلت له الحوصلة كالمخلاة المعلقة أمامه ليودع فيها ما أدرك من الطعام بسرعة ثم ينفذه إلى القانصة على مهل.

وفيها حكمة أخرى فإن الطير الذي يزق أفراخه يكون رده الطعام من قرب أسهل عليه ثم تأمل ريش الطائر فإنك تجده منسوجاً نسج الثوب من سلوك رقاق وفيها من اليبس ما يمسك من حولها ومن اللين ما لا تنكسر معه وهي خاوية قد ألف بعضها إلى بعض كتأليف الخيط إلى الخيط والشعر إلى الشعر ثم تجده إذا فتحته أعني النسيج ينفتح قليلاً ولا ينشق ليدخله الريح فيثقله عن طيرانه وتجد في وسط الريش عموداً غليظاً يابساً مثبتاً قد نسج عليه كهيئة الشعر ليمسكه بصلابته فلو عدم ذلك وعرضت الريشة دونه لفسخها ما يقابلها من الهواء وهي مع صلابتها مجوفة ليخفف عليه طيرانه.

أنظر إلى الطائر الطويل الساقين والحكمة في طولهما أنه يرعى أكثر رعيه في صحصاح كأنه فوقه مرقب يتأمل ما يدب في الماء فإذا رأى شيئاً من حاجته خطا خطواً رفيقاً حتى يتناوله فلو كان قصير الساقين لكان حين يخطو إلى الصيد يصل بطنه إلى الماء فيهزه فيذعر منه الصيد فيبعد عنه. أنظر إلى العصافير وغيرها فإنها تطلب رزقها طول نهارها فلا هي تجده مجموعاً في محله وهو أمر جار على سنة الله في خلقه فإن صلاحهم في السعي في طلب الرزق فإن الطير لو وجده ميسراً أكب عليه ولا يقلع عنه حتى يمتلىء فيثقل عن الطيران ولا يستطيع رده أعني قذفه من بطنه مثل طير الماء الكبير فإنه يأكل السمك فإذا امتلأ منه وأزعجه مزعج تقياه حتى

عالم الطيور أو هو مخلوق كامن داخل مهد من المواد الغذائية المتكاملة اللازمة لضمان تغذية هذا المخلوق الكامن، أو المخلوق المختفي خلف حدود قدرة عيوننا، ويتكون هذا الغذاء من ماء وأملاح وبروتينات تضمن للجنين تغذية متكاملة بالإضافة إلى نظام دقيق وحساس جداً للتنفّس لحاجة الهواء الطبيعي لدورة الحياة، ولله في خلقه شؤون.

يخف للطيران وكذلك الناس أيضاً لو وجدوه بلا سعي لتفرغوا إفراغاً يوقعهم في غاية الفساد.

أنظر إلى هذه الأصناف من الطير التي لا تخرج إلا ليلاً مثل البوم والهام والخفاش فإن عيشها يتيسّر في الجو كالبعوض والفراش وشبهه فإنها منبثة في هذا الجو. فجعل عيشه في موضع أقرب إليه من الأرض ولعل نوره لا يعينه أن يلتقط من الأرض بدليل أنه لا يظهر في نور الشمس إلا مختفياً فالهم أن يعيش في الجو من الفراش وغيره انظر إلى الخفاش لما خلق بغير ريش كيف خلق له ما يقوم مقامه وجعل له فم وأسنان وكل ما في البهائم الأرضية من الولادة وغيرها وقدرة على الطيران فاظهر سبحانه فيه أن قدرته على الطيران لا تقتصر على ما خلق له الريش ولا تنحصر في نوع واحد لأنه خلق هذا النوع وخلق من السمك جنساً يطير على وجه البحر مسافة طويلة ثم ينزل الماء فسبحان القادر العليم أنظر إلى الذكر والأنثى من الحمام كيف يتعاونان على الحضانة فإذا إحتاج أحدهما إلى قوته ناب الآخر إلى آخر وقت الحضانة ثم الهمهما على الحضانة فلا يطيلان الغيبة على البيض إذا خرجا لنيل القوت حتى أنهما يجتمع في أجوافهما البراز للحرص على الرقاد فإذا اضطره خروج البراز أخرجه دفعة واحدة.

ثم انظر إلى حرص الذكر حين تحمل الأنثى بالبيض ويقرب أوان وضعها كيف يطردها وينقرها ولا يدعها تستقر خارجاً عن الوكر خشية أن تضع البيض في غير الموضع المهيأ لوضعه. أنظر كيف يزق أفراخه ويعطف عليها ما دامت محتاجة إلى الزق حتى إذا كبرت واشتدت ولقطت واستغنت عن أبويها صارت إذا تعرضت له لنيل ما اعتادت ضربها وصرفها عن نفسه واشتغل بغيرها.

ثم انظر ما خلق الله تعالى في الكواسر من شدة الطيران حتى لا يسبق له من يطلبه ومن قوة المخلب وحدته في المنقار والأظفار فكان مخلبها مدية للقطع وكان مخلب أرجلها خطاطيف يعلق فيها اللحم حتى تحصل ما تحتاجه من قوتها.

أنظر إلى طير الماء لما جعل قوته في الماء كيف جعل فيه قوة السباحة والغطس ليأخذ من جوف الماء رزقه فجعل سبحانه وتعالى لكل صنف من الطيور ما يليق به في تحصيل قوته.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باب
في حكمة خلق البهائم

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[1].

اعلم وفقك الله وإيانا أن الله خلق البهائم لمنافع العباد امتناناً عليهم كما نبهت على ذلك هذه الآية فخلقها الله بلحم مثبت على عظام صلبة تمسكه وعصب شديد وعروق شداد وضم بعضها إلى بعض ولم يجعلها لينة رخوة ولا صلبة كصلابة الحجارة وجعل فوق ذلك جلداً اشتمل على أبدانها كلها لتضبطها وتتقنها لأنها أريد منها القوة للعمل والحمل ثم خلقها سبحانه سميعة بصيرة ليبلغ الإنسان حاجته منها لأنها لو كانت عمياء صماء لم ينتفع بها الإنسان ولا وصل بها إلى شيء من مآربه ثم منعت العقل والذهن حكمة من الله لتذل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا كدها عند حاجته إلى أكدادها في الطحن وحمل الأثقال عليها إلى غير ذلك.

وقد علم الله أن بالناس حاجة إلى أعمالها وهم لا يطيفون أعمالها ولا يقدرون عليها ولو كلف العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم فلا

---

(١) سورة النحل: الآية (٨).

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتنّ به عليهم وهو ﴿الخيل والبغال والحمير﴾ التي جعلها للركوب والزينة بها وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر. مختصر ابن كثير.

يبقى فيهم فضلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يخصون بعملها وخلقتهم قابلة لها ولا غنى لهم عنها وتحصيل الفضائل من العلوم والاداب ولو كان ذلك مع اتعابه لإبدانهم يضيق عليهم معايشهم فكان قضاؤه على هذا تسخيرها لهم من النعم العظيمة أنظر في خلق أصناف من الحيوانات وتهيئتها لما فيه صلاح كل صنف منها فبنو آدم لما قدروا أن يكونوا ذوي علاج للصناعات واكتساب للعلوم وسائر الفضائل ولا غنى لهم عن البناء والحياكة والنجارة وغير ذلك خلقت لهم العقول والأذهان والفكر وخلقت لهم الأكف ذوات الأصابع ليتمكنوا من القبض على الأشياء ومحاولات الصناعات.

وآكلات اللحم لما قدر أن يكون عيشها من الصيد ولا تصلح لغيره خلقت لها مخالب وسرعة نهضة وأنياب. وآكلات النبات لما قدر أن تكون غير ذات صنعة ولا صيد خلقت لبعضها أظلاف كفتها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعى ولبعضها حوافر مستديرة ذات قعر كأخمص القدمين لتنطبق على الأرض وتتهيأ للحمل والركوب.

تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوانات كيف خلقت ذوات أسنان حداد وأتراس شداد وأفواه واسعة وأعينت بسلاح وأدوات تنال بذلك ما تطلبه فإن ذلك كله صالح للصيد فلو كانت البهائم التي عيشها النبات ذوات مخالب وأنياب كانت قد أعطيت ما لا تحتاج إليه لأنها لا تصطاد ولا تأكل اللحم ولو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه من السلاح الذي به تصطاد.

فانظر كيف أعطى سبحانه كل واحد من أصناف الحيوان ما يشاكله وما فيه صلاحه وحياته وأنظر إلى أولاد ذوات الأربع كيف يجدها تتبع الأمهات مستقلة بنفسها لا تحتاج إلى تربية وحمل كما يحتاج الآدميون إذ لم يجعل في أمهاتها ما جعل في أمهات البشر من العقل والعلم والرفق في أحوال التربية والقوة عليها بالفكر والأكف والأصابع المهيأة لذلك ولغيره فلذلك أعطيت النهوض والإستقلال بأنفسها ولذلك ترى فراخ بعض الطير مثل الدجاج والدراج تدرج وتلقط عقيب خروجها من البيضة وما كان منها ضعيفاً لا نهوض له مثل فراخ الحمام واليمام جعل في الأمهات عطف عليها(٢) فصارت ترعى الطعام في حواصلها ثم تمجه في

(٢) انظر في عطف الدجاجة على فراخها وحمايتها والتفتيش عن الغذاء لها، فإذا وجدت الغذاء

أفواه فراخها ولا تزال كذلك حتى تنهض وتستقل فكل أعطى من اللطف والحكمة بقسط فسبحان المدبر الحكيم. انظر إلى قوائم الحيوان كيف ينتقل أزواجاً لتتهيأ للمشي فلو كانت أفراداً لم تصلح لذلك لأن المائي منها ينقل منها بعضه ويعينه على مشيه اعتماده على ما لم ينقله منها فذو القائمتين ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين من خلاف[٣] لأنه لو كان ينقل قائمتين من أحد جانبيه يعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض كالسرير ولو كان يرفع يديه ويتبعها برجليه لفسد مشيه فجعل ينقل اليمنى من مقدمه على اليسرى من مؤخره ويعتمد على الأخريين من خلاف أيضاً فيثبت على الأرض ولا يسقط إذا مشى لسرعة التحاقهما فيما بين المشي والإعتماد أما ترى الحمار يذل للحمولة والطحن والفرس مبرأ منها والبعير لا تطيقه عدة رجال لو استعصى وينقاد لصبي صاير.

والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرثه والفرس تركب ويحمل عليها السيوف والأسنة في الحرب وقاية لراكبها والقطيع من الغنم يرعاها صبي واحد فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها لتعذرت رعايتها وربما أعجزت طالبها وكذلك جميع الحيوان المسخر للإنسان وما ذلك إلا لأنها عدمت العقل والتروي فكان ذلك سبباً لتذليلها فلم تلتوِ على أحد من الناس وإن كدها في كثير من الأحوال وكذلك السباع لو كانت ذوات عقل وروية لتواردت على الناس وأنكتهم نكاية شديدة عظيمة ولعسر زجرها ودفعها ولا سيما إذا اشتدت حاجتها في طلب قوتها ويشتد خللها ألا ترى كيف إذا أحجمت عن الخلق وصارت في أماكنها خائفة تهاب مساكن الناس وتحجم عنها حتى صارت لا تظهر ولا تنبعث في طلب قوتها في غالب أحوالها إلا ليلاً فجعلها مع شدة قوتها وعظم غذائها كالخائفة من الأنس بل هي ممنوعة عنهم ولولا ذلك لساورتهم في منازلهم وضيقت عليهم في مساكنهم.

تنادي فراخها بصوت أو صوتين، وإذا رأت خطراً عليها وعلى فراخها فإنها تطلق صوتاً ذا نغمة خاصة فتهرع الفراخ إلى أقرب ملجأ وتحتمي به.

(٣) يقصد بها، أن الحيوان دو الأربع في سيره ينقل قائمتين، فإذا إعتمد على قائمته الأمامية اليمنى تقابله في الإعتماد قائمته الخلفية اليسرى، وبالعكس

ألاترى الكلب وهو من بعض السباع كيف سخر في حراسة منزل صاحبه حتى صار يبذل نفسه ويترك نومه حتى لا يصل إلى صاحبه ما يؤذيه ثم أنه أعان صاحبه بقوة صوته حتى يتنبه من نومه فيدفع عن نفسه ويألفه حتى يصبر معه على الجوع والعطش والهوان والجفاء فطبع على هذه الخلال لمنفعة الإنسان في الحراسة والإصطياد ولما جعله الباري سبحانه حارساً أمده بسلاح وهي الأنياب والأظفار واللهث والقوى ليذعر به السارق والمريب وليجتنب المواضع التي تحيمها ثم انظر كيف جعل ظهر الدابة سطحاً مثبتاً على قوائم أربع لتمهيد الركوب والحمولة.

وجعل فرجها بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها إذ لو كان أسفل باطنها كالآدمي لم يتمكن الفحل منها. ألا ترى أنه لا يستطيع أن يأتيها كفاحاً كما يأتي الرجل المرأة فتأمل هذه الحكمة والتدبير ولما كان فرج الفيلة تحت بطنها فإذا كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى ينمكن من اتيانها فلما لم يخلق في الموضع المخلوق في الأنعام والبهائم خلقت فيه هذه الصفة ليقوم الأمر الذي به دوام التناسل وذلك من عظيم العبر ثم انظر كيف كسيت أجساد البهائم الشعر والوبر ليقيها ذلك الحر والبرد وغيره من الآفات وحملت قوائمها على الأظلاف والحوافر ليقيها ذلك من الحفا وما كان منها بغير ذلك جعلت له أخفاف تقوم مقام الحافر في غيره.

ولما كانت البهائم لا أذهان لها ولا كف ولا أصابع تتهيأ للأعمال كفيت مؤنة ما يضربها بأن جعلت كسوتها في خلقتها باقية عليها ما بقيت فلا تحتاج إلى استبدالها ولا تجديد بغيرها بخلاف الآدمي فإنه ذو فهم وتدبير وأعضاء مهيأة لأعمال ما يقترحه وله في أشغاله بذلك صلاح وفيه حكمة فإنه خلق على قابلية لفعل الخير والشر وهو إلى فعل الشر أميل منه إلى فعل الخير فجعلت الأسباب التي يحصل بها ما هو محتاج إليه ليشتغل بها عما فيه فساده وهلاك دينه فإنه لو أعطى الكفاية في كل أحواله أهلكه الأشر والبطر وكان من أعظم الحيوانات فساداً في الأرض ولتصرف بعقله الذي هو مخلوق لبنال به السعادة إلى ما فيه شقاوته.

ثم أن الآدمي مكرم يتخير من ضروب الملابس ما شاء فيلبس منها ما شاء ويتزين بها ويتجمل ويتلذذ منها بما يشاء ويكمل بها زينته وجماله وبهاءه في عين من يصحبه ويحب قربه ويطيب بذلك رائحته وينعش نفسه وهذا من باب النعمة عليه والكرامه له بخلاف البهائم فإنها غنية عن هذا كله. انظر فيما ألهم الله البهائم

والوحوش في البراري فإنها توارى أنفسها كما يواري الناس موتاهم فما أحس منها بالموت توارى بنفسه إلى موضع يحتجب فيه حتى يموت وإلا فأين جثث السباع والوحوش وغيرها فإنك لو طلبت منها شيئاً لم تجده وليست قليلة فيخفى أمرها لقلتها بل لو قال قائل أنها أكثر من الإنس لم يبعد لأن الصحارى قد امتلأت من سباع وضباع وبقر وحمير ووعول وإبل وخنزير وذئاب وضروب من الهوام والحشرات وأصناف من الطير. وغير ذلك مما لا يحصى عدده وهذه الأصناف في كل يوم يخلق منها ويموت منها ولا يرى لها رمم موجودة والذي أجرى الله به عادته أن تكون في أماكنها فإذا أحست بالموت أتت إلى مواضع خفية فتموت فيها فانظر هذا الأمر الذي الهمه هذه الأصناف في دفن جثثها بما فطرت عليه وشخص لبني آدم بالفكر والتروي.

تأمل الدواب كيف خلقت أعينها شاخصة أمامها لتنظر ما بين يديها فلا تصدم حائطاً ولا تتردى في حفرة وإذا قربت من ذلك نفرت منه وابعدت نفسها عنه وهي جاهلة بعاقبة ما يلحقها منه أليس الذي جبلها على ذلك أراد صلاحها وسلامتها لينتفع بها ثم انظر إلى فمها مشقوقاً إلى أسفل الخطم لتتمكن من نيل العلف والرعي ولو جعل كفم الإنسان لم تستطع أن تتناول شيئاً من الأرض وأعينت بالجحفلة لتقصم بها ما قرب منها فألهمت قصم ما فيه صلاحها وترك ما لا غذاء لها فيه ولا صلاح انظر ما كان من البهائم كيف يمزز الماء في شربه مزاً وكيف خلقت فيه شعرات حول فمه يدفع بها ما كان على وجه الماء من القذى والحشيش ويحركها تحريكاً يدفع به الكدر عن الماء حتى يشرب صفوه فتقوم لها هذه الشعرات مقام فم الإسان.

ثم انظر إلى ذنب البهيمة وحكمته وكيف خلق كأنه غطاء في طرف شعر فمن منافعه أنه بمنزلة الغطاء على فرجها ودبرها ليسترها ومنها أن ما بين دبرها وطريق بطنها أبداً يكون فيه وضر يجتمع بسببه الذباب والبعوض ويجتمع أيضاً على مؤخرها فأعينت على دفع ذلك بتحريك ذنبها فصار كأنه مذبة في يدها تذب بها وتطرد عنها ما يضر بها ثم أنها تعطف برأسها فتطرد به ما في مقدمها من الذباب أيضاً ثم أن الدابة أيضاً أعينت بحركة مختصة وذلك أن الذباب إذا وقع عليها في مواضع بعيدة من رأسها وذنبها حركت ذلك الموضع من جلدها تحريكاً تطرد به الذباب وغيره عنها وذلك من عجيب الحكمة فيما لا ينتفع بيدين ومن الحكمة فيه أيضاً أن الدابة

تستريح بتحريكه يمنة ويسرة لأنها لما كان قيامها على أربع اشتغلت يداها أيضاً بالحمل لبدنها والتصرف فجعل لها في تحريك ذنبها منفعة وراحة وأعينت بسرعة حركته لئلا يطول ألمها بما يعرض لها ومن الحكمة فيه أن البهيمة إذا وقعت في بركة أو مهواة أو وحلت في طين أوغيره فلا تجد شيئاً أهون على نهوضها وخلاصها منه من الرفع بذنبها ومن ذلك إذا خيف على حملها أن ينقلب على رقبتها عند هبوطها من مكان مصبوب أو ليسبقها رأسها فتنكب على وجهها فيكون مسكها بذنبها في هذه المواضع يعدلها ويعينها على اعتدال سيرها وسلامتها مما خيف منه عليها إلى غير ذلك من مصالح لا يعلمها إلا الحكيم العليم.

انظر إلى مشفر الفيل وما فيه من الحكمة والتدبير فإنه يقوم مقام اليد في تناول العلف وإيصاله إلى فمه فلولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئاً في الأرض إذ لم يجعل له عنق يمدها كسائر الأنعام فأما عدم العنق في هذا الخلق جعل له هذا الخرطوم فيتناول به ما يحتاجه فسبحان اللطيف الخبير، انظر كيف جعل هذا الخرطوم وعاء يحمل فيه الماء إلى فمه ومنخراً يتنفس منه وآلة يحمل بها ما أراد على ظهره أو يناول من هو راكب عليه انظر إلى خلق الزرافة لما كان منشأها في رياض شاهقة خلق لها عنقاً طويلاً لتدرك قوتها من تلك الأشجار تأمل في خلق الثعلب فإنه إذا حفر له بيتاً في الأرض جعل له فوهتين أحدهما يتسرب منها والأخرى يهرب منها إن طلب ويرقق مواضع في الأرض في بيته فإن طلب من المواضع المفتوحة ضرب برأسه في المواضع التي رققها فخرج من غير المنافذ وهي المواضع التي نحتها.

انظر ما خلق الله تبارك وتعالى في جبلته لصيانه نفسه، وجملة القول في الحيوان أن الله تبارك وتعالى خلقه مختلف الطباع والخلق فما كان منه ينتفع الناس بأكله خلق فيه الإنقياد والتذلل وجعل قوته النبات وما جعل منه للحمل جعله هادىء الطبع قليل الغضب منقاداً منفعلا على صور يتهيأ منه الحمل وما كان منه ذا غضب وشر إلا أنه قابل للتنظيم إذا نظم خلق فيه هذا القبول ليستعين العباد بصيده وحراسته وأعين بآلات قد تقدم ذكرها ومن جملة ذلك الفيل فإنه ذو فهم مخصوص به وهو قابل للتأنس والتعلم فيستعان به في الحمل والحروب ومنها ما له غضب وشر إلا أنه متأنس بالإنسان لمنفعته كالهرة ومن الطير ما للناس به انتفاع[٤] لما فيه من

---

(٤) خلق سبحانه الطير لمنافع الإنسان، فبالإضافة إلى أن لحمه غذاء مهماً للإنسان، فإن بيضه

الألفة والتأنس فمن ذلك الحمام يألف موضعه فتنقل بسببه الأخبار بسرعة إذا دعت حاجة إلى ذلكَ. وجعله الله سبحانه كثير النسل فيكون منه طعام ينتفع به ومن ذلك البازي فإن طباعه تنتقل إلى التأنس وإن كان في طبعه مبايناً إلا أنه لما علم الله أنه ينتفع بصيده جعل فيه القبول للتنظيم حتى خرج عن عادته وبقي يعمل ما يوافق أصحابه وقت الصيد وما خفي من الحكم في خلق الله تعالى أكثر مما علم.

وخاصة الدجاج من أهم نعم الله على عباده، فهو كغذاء مصدر بروتيني نقي، والبيضة تأتينا صافية نقية متقنة أيما إتقان، مغلقة بطهارة ونقاء وصفاء لم تمسها يد ولم تختلط بها ملوثات من مواد كيميائية أو غازات، وبها من الأحماض الأمينية والبروتينات تشكيلة بديعة متكاملة.



باب
في حكمة خلق النحل والنمل والعنكبوت
ودود القز والذباب وغير ذلك

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا مِن دَآبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَـٰئِرٍ يَـطِيرُ بِجَنَـاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَـالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1].

انظر إلى النمل وما ألهمت له في أحشادها في جمع قوتها وتعاونها على ذلك وإعداده لوقت عجزها عن الخروج والتصرف بسبب حر أو برد وألهمت في تقلب ذلك من الحزم ما لم يكن عند من يعرف العواقب حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ما يحمله أو جهد به أعانة آخر فيه فصارت متعاونة[2] على النقل

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٣٨)

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾، قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال قتادة: الطير أمة والإنس أمة، والجن أمة، وقال السدي: ﴿إلا أمم أمثالكم﴾: أي خلق أمثالكم. وقوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾. أي الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان برياً أو بحرياً، كقوله: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾. أي مفصح بأسمائها، وأعدادها، ومكانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقوله: ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾. عن ابن عباس قال: حشرها الموت، (والقول الثاني). إن حشرها هو بعثها يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾. ابن كثير.

(٢) النمل، وبحكمة وتدبير من الله تعالى بحاجة إلى أن يجمع قوته ويعده لوقت عجزه، وبما

كما يتعاون الناس على العمل الـذي لا يتم إلا بالتعـاون ثم أنها ألهمت حفـر بيوت في الأرض تبتدىء في ذلك بإخراج ترابها وتقصد إلى الحب الذي منه قوتها فتقسمه خشيـة أن ينبت بنـداوة الأرض فمن خلق هـذا في جبلتهـا إلا الـرحمن الـرحيم ثم إذاأصاب الحب بلل أخرجته فنشرته حتى يجف ثم أنها لا تتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض خـوفاً من السيـل أن يغـرقهـا ثم أنـظر إلى النحـل ومـا ألهمت إليـه من العجائب والحكم فإن الباري سبحانه جعل لها رئيساً تتبعه[3] وتهتدي بـه فيما تنـاله من أقواتها فإن ظهر مع الرئيس الذي تتبعه رئيس آخر من جنسه قتل أحدهمـا الآخر وذلك لمصلحة ظاهرة وهو خوف الإفتـراق لأنهما إذا كـانا أميـرين وسلك كل واحـد منهما فجاً افترق النحل خلفهما ثم أنها الهمت أن ترعى رطوبـات من أعلى الأزهار فتستحيـل في أجوافهـا عسلاً فعلم من هـذا التسخير مـا فيه من مصـالـح العبـاد من شراب فيه شفاء للناس كمـا أخبر سبحـانه وتعـالى وفيه غـذاء وملاذ للعبـاد وفيه من أقوات فضلات عـظيمة جعلت لمنـافع بني آدم فهي مثـل ما يفضـل من اللبن الذي خلق لمصالح أولاد البهائم وأقواتهـا وما فضـل من ذلك ففيـه من البركـة والكثرة مـا ينتفع به الناس.

ثم انظر ما تحمله النحل من الشمع بـأرجلها لتـوعي فيه العسـل وتحفظه فـلا تكاد تجد وعاء أحفظ للعسل من الشمع في الإجناح فانظر في هذه النحلة هـل في علمهـا وقدرتهـا جمع الشمـع مع العسـل أو عندهـا من المعرفـة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقـراره في الشمع وصيـانته في الجبـال والشجر في المـواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها ثم انظر لخروجها نهاراً لرعيها ورجوعها عشية إلى أماكنها وقد حملت ما يقوم بقوتها ويفضل عنها ولها في ترتيب بيوتهـا من الحكمة في بنـائها حافظ لما تلقيه من أجوافها من العسل ولها جهة أخرى تجعل فيها برازها مباعداً عن مواضع العسل. وفيها غير هذا مما انفرد الله بعلمه.

أن بعض الحبـوب أكبر وأثقـل من النملة كان لا بـد من تعاونهـا، وهذه أهم صفـاتها، حتى أصبح تعاون النمل وصبره مضرباً للأمثـال؛ وقصص التاريـخ والعبر والأمثـال كثيراً مـا نسمعها في حياتنا العملية.

(٣) يقصد بها ملكة النحل التي تحكم مملكتها حكماً أدبيـاً ودياً، لا قهـر فيه ولا تسلط وشعبهـا يتحلى بصفات لا مثيل لهـا، فهو شعب نشيط لا يعـرف الكسل متفـان في الطاعـة. وتتألف مملكـة النحل هـذه من ملكة واحـدة وعـدة مئـات من اليعـاسب (الـذكـور) وعـدد كبيـر من العاملات يتراوح بين (٣٠ ـ ٨٠) ألفاً وقد يزيد عددها أحياناً عن ١٠٠ ألف عاملة.

انظر إلى العنكبوت وما خلق فيها من الحكمة فإن الله خلق في جسدها رطوبة تنسج منها بيتاً لتسكنه وشركاً لصيدها فهو مخلوق من جسدها وجعل الله غذاءها من أقواتها ينصرف إلى تقويم جسدها وإلى خلق تلك الرطوبة المذكورة فتنصبه أبداً مثل الشرك وفي ركن الشرك بيتها وتمكن في بيتها بحيث يغيب شخصها والشرك من خيوط رقاق تلتف على أرجل الذباب والناموس وما أشبه ذلك فإذا أحست أن شيئاً من ذلك وقع في شركها خرجت إليه بسرعة وأخذته محتاطة عليه ورجعت إلى بيتها فتقتات بما يتيسر لها من رطوبة تلك الحيوانات وإن كانت مستغنية في ذلك الوقت شكلته وتركته إلى وقت حاجتها فانظر ما جعل الله فيها من الأسباب لحصول قوتها فبلغت في ذلك ما يبلغه الإنسان بالفكرة والحيلة كل ذلك لصلاحها ولنيل قوتها ولتعلم أن الله هو المدبر لهذا.

ثم انظر من العجائب دود القز وما خلق فيه من الأشياء التي يتحير منها ويذكر الله عند رؤيتها فإن هذا الدود خلق لمجرد مصلحة الإنسان ومنافعه فإن هذا الحيوان الذي يخلق من جسمه الحرير وذلك أن صورة البزر تحضن حتى إذا حمى عاد دوداً كالذر فيوضع هذا الدود على ورق التوت فيتغذى منه فلا يزال يرعى منه حتى يحفر جسمه فينبعث إلى غزل جوز الحرير فلا يزال كذلك حتى يفنى جسمه وتعود جوزة حرير ويصير هو جسماً ميتاً لا حياة فيه.

ثم انظر فإن الباري سبحانه لما أراد حفظ هذا الجنس ببقاء نسله فعندما ينتهي من غزل الحرير ويبقى ذلك الجسم يقلبه الله إلى صورة طائر صغير قريب من صورة النحل فيجمع على بساط أو غيره وهو في رأى العين جنس واحد لا يتميز منه الذكر من الأنثى فيعلو الذكر منه على ظهر الأنثى ويقيم لحظة على ظهرها فتحبل لوقتها وتلد لوقتها مثل ذلك البزر الذي حضن أولاً ثم يطير فيذهب فلا يبقى بها انتفاع إذ قد حصل منها المقصود وهو ذلك البزر.

فانظر من ألهمها الرعي من ذلك الورق حتى ترتبت منه ومن ألهمها إلى غزل أجسادها حريراً حتى يعني بما غزلته ومن ربى لها أجنحة وقلب صورتها حتى صارت على هيئة يمكن فيها اجتماع الذكر والأنثى لتناسلها ولو بقيت على صورتها الأولى لم يأت منها تناسل ولا هذا الإجتماع ثم انظر ما يسره الباري سبحانه من عمل ما غزلته هذه الدودة على من يعمله من بني آدم حتى يكون منه أموال كثيرة وملابس عظيمة وزينة وانظر هذا التسخير العجيب في هذا الحيوان اللطيف وما

أظهر فيه سبحانه من بديع الصنع وعجيب الفعل وعظيم الإعتبار وما جعل فيه من البرهان والآيات على بعث الأموات وإعادة العظام الرفات سبحانه لا إله إلا هو العلي العظيم.

ثم انظر الذبابة وما أعينت به في نيل قوتها فإنها خلقت بأجنحة تسرع بها إلى موضع تنال فيه قوتها وتهرب بها عما يهلكها ويضربها وخلق لها ستة أرجل تعتمد على أربع وتفضل اثنتين فإن أصابها عثار مسحته بالرجلين اللّتين تليهما وذلك لرقة أجنحتها ولأن عينيها لم يخلق لها أهداب لأنهما بارزتان عن رأسها وجعل هذا الحيوان وما جرى مجراه مما يتعلق ببني آدم ويقع عليهم دائماً وينغص عليهم عيشهم ليعرفهم الباري سبحانه هو أن الدنيا حتى تصغر عندهم ويهون أمر فراقها وهو وجه من وجوه الحكمة عليهم تأمل كثيراً من الحيوان الصغير عند تلمسه يعود كأنه جماد لا حراك به ويبقى على ذلك ساعة ثم يتحرك ويمشي وهل ذلك إلا لأن يصطاد إذا دلت هيئته على عدم حياته فإذا كان شبيهاً بالجماد ترك كما تترك سائر الحجارة.

تأمل العقاب عندما يصطاد السلحفاة يجدها كأنها حجر ولا يجد فيها موضعاً لأكله فيصعد بها في مخالبه حتى إذا بعد من الأرض اعتدل بها على جبل أو حجارة وأرسلها فتهشمها الوقعة فيسقط عليها فيأكلها فانظر كيف الهم الطريق في نيل قوته من غير عقل ولا روية انظر إلى الغراب لما كان مكروهاً خلق في طبعه الحذر لصيانة نفسه حتى كان يعلم الغيب فيمن يقصده والهم الإحتيال في إخفاء عشه لصون فراخه وقل احتفاله بالأنثى خشية أن تشغله عن شدة حذره ولذلك قل أن يرى مجتمعاً مع أنثى فهذا أبداً دأبه وحاله مع من له عقل وفطنة وتراه مع البهائم على خلاف ذلك فيقف على ظهورها ويأكل من دم البعير ومن أوراث الدواب وقت تبرزها وإذا وجد شيئاً من قوته وأكل منه وشبع دفن باقيه حتى يعاوده وقتاً آخر فمن خلق هذا في طبعه ودبره بهذا التدبير العجيب إلا الله لأنه لا عقل له ولا روية.
أنظر إلى الحدأة لما كانت مكروهة حفظت نفسها بقوة طيرانها وتعاليها وحفظت في أمر قوتها بقوة بصرها فإنها ترى ما تقتات به في الأرض مع علوها في الجو فتنحط نحوه بسرعة وألهمت معرفة من هو مقبل ومن هو مدبر فتخطف ما تحفظه من الناس من ورائهم ولا تخطف مما يستقبلها لئلا بمنعها المستقبل بيديه وأعينت لما كان غذاؤها من هذه الوجوه بأن جعلت لها مخالب كأنهم السنانير لا يكاد يسقط منها ما ترفعه

فسبحان المدبر الحكيم.

انظر إلى الحيوان المسمى حرباء وما فيه من التدبير فإنه لما خلق بطيئاً في نهضته وكان لا بد له من قوته فخلق على صورة عجيبة فخلقت عيناه تدور لكل جهة من الجهات حتى تدرك صيده من غير حركة في جسده ولا قصد إليه ويبقى جامداً كأنه ليس من الحيوان ثم أعطى مع السكون أن يتشكل في لون الشجرة التي يكون عليها حتى يكاد يختلط لونه بلونها ثم إذا قرب منه ما يصطاده من ذباب أو غيره أخرج لسانه فيخطف ذلك بسرعة خفوق البرق ثم يعود على حالته كأنه جزء من الشجرة وجعل الله لسانه بخلاف المعتاد ليلحق به ما بعد عنه بثلاثة أشبار أو نحوه فقد سخر له ما يصطاد به على هذه المسافة وإذا رأى ما يريعه ويخيفه تشكل على هيئة وشكل ينفر منه من يصطاده من الحيوان ويكرهه فانظر هذه التي خلقت فيه لأجل قلة نهضته فأعين بها. انظر إلى الحيوان الذي يسمى سبع الذباب وما أعطي من الحيلة والرفق فيما يقتات به فإنك تجده يحس الذباب قد وقع قريباً منه فيركد ملياً حتى كأنه ميت أو جماد لا حراك به فإذا أحس أن الذباب قد أطمأن دب دبيباً رقيقاً حتى لا ينفره حتى إذا صار قريباً منه بحيث يناله بوثبة وثب عليه فأخذه فإذا أخذه اشتمل عليه بجسده كله خشية أن يتخلص منه الذباب فلا يزال قابضاً عليه حتى يحس ببطلان حركته فيقبل عليه فيتغذى منه بما يلائمه منه فانظر إلى هذه الحيلة أهي من فعله أو هي مخلوقة من أجل رزقه فسبحان الباري الحكيم. انظر إلى الذر البعوض[٤] الذي أوهن الله قوتها وأصغر قدرها وضرب بها المثل في كتابه تجد فيها نقصاً عما فيه صلاحها من جناح تطير به ورجل تعتمد عليها وبصر تقصد به موضعاً تنال فيه قوتها وآلة لهضم غذائها وإخراج فضلته وانظر هل يمكن أن يعيش من غير قوت وهل يمكن أن يكون القوت في غير محل واحد وأخراجه فضلته من غير منفذ.

(٤) البعوض من فصيلة الذباب، والإناث فقط منه تمتص الدم في حين أن الذكور تمتصّ رحيق الأزهار.

ثم انظر كيف دبرها العزيز الحكيم فسواها وقدر أعضاءها واستودعها العلم والمعرفة بمنافعها ومضارها[٥] وكله دليل على علمه وقدرته وحكمته البالغة فهي بعوضة صغرت في النظر ومع هذا فلو أن أهل السموات والأرض من الملائكة فمن دونهم من العالمين وسائر الخلق أجمعين أرادوا أن يعرفوا كيف قسم الخالق سبحانه أجزاءها وحسن اعتدال صورتها في أعضائها لما قدروا على ذلك إلا تظاهرا لمنظر العجز منهم على عدم حقيقة الخبر ولو اجتمعوا ثم تفكروا كيف ركبت معرفتها حتى عرفت أن ما بين الجلد واللحم دماً وهو الذي هو غذاؤها ولولا معرفتها به لم تقدم على مصه حتى تطعمه وكيف همتها التي قصدت بها أن تطير إلى الموضع الذي ألهمها ربها أن فيه غذاءها وكيف خرق سمعها وكيف سمعت حس من يقصدها وكيف عرفت أن نجاتها في الفرار إذا ولت هاربة ممن قصدها فلن يدرك ذلك منها الخلائق أجمعون ولو جزؤها ما إزدادوا في أمرها إلا عمى وبعداً عن المعرفة فهذه الحكمة والقدرة في بعوضة فما ظنك بجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

---

(٥) من مضاره أن لسعة البعوض تسبب التهابات جلدية حادة وتورمات في المناطق المصابة، كما يساهم بنقل كثير من الأمراض الفتاكة مثل: الملاريا والحمى الصفراء، وحمى الدنج وداء الفيل.

باب
في حكمة خلق السمك
وما تضمن خلقها من الحكم

قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾[1].

انظر واعتبر بما خلق الله تعالى في البحار والأنهار من الحيوان المختلف الصور والأشكال وما فيه من الآيات البينات فإنه تعالى لما جعل مسكنه في الماء لم يخلق له قوائم ولم يخلق فيه رئة لأنه لا يتنفس وهو منغمس في لجة الماء وخلقت له مكان القوائم أجنحة شداد يحركها من جانبه فيسير بها حيث شاء وكسا جلده كسوة متداخلة صلبة تخالف لحمه متراصة كأنها درع لتقيه ما يعمد إليه وما يؤذيه وما لم يخلق له من السمك تلك الكسوة وهي القشر المتداخل المخلوق على ظاهره خلق له جلداً غليظاً متقناً يقوم له مقام تلك الكسوة لغيره وخلق له بصراً وسمعاً وشماً ليستعين بذلك على نيل قوته والهرب مما يؤذيه.

وانظر كيف أعطى في قعر البحر ما يناسبه في نيل القوت والهرب مما يضره ولما علم الله سبحانه أن بعضه غذاء لبعض كثره وجعل أكثر أصنافه يحمل ولم يجعل الحمل منه مخصوصاً بالأنثى دون الذكر كحيوان البر بل جعل الذكر والأنثى

---

(١) سورة النحل: الآية (١٤)

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتنّ على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وما يخلقه فيه من اللآليء والجواهر النفيسة. مختصر ابن كثير

جنساً واحداً يخلق في بطونها مرة واحدة في وقت معلوم ذريعة مجتمعة مشتملة على عدد لا ينحصر فيخلق من جوف واحدة عدداً لا يحصى وذلك من كل بزرة حوتاً من الجنس ومن جنس آخر يخلق في الأنهار وغيرها بغير توالد فيخلق منها أعداداً لا تحصر دفعة واحدة ومنه صنف يتوالد بالذكر والأنثى وهذا الجنس يخلق له يدان ورجلان مثل السلحفاة والتمساح وما شاكلهما فيتولد منها بيض تفقص البيض بحرارة الشمس خرج من كل بيضة واحدة من الجنس ولما علم الله سبحانه وتعالى أن السمك في البحر لا يمكن أن يحضن ما يخرج من بزره ألقى الروح في بزر جميعه عندما يولد فيجد فيه جميع ما يحتاجه من الأعضاء عند إلقاء الروح فيه فيستقل ولا يفتقر إلى أحد في كمال خلقه فانظر هذه الحكمة واللطف حيث لم يمكن حضانته في البحر ولا تربيته ولا معونته البتة جعله مستقلاً بنفسه مستعيناً عن ذلك كله ثم أن الله سبحانه كثره لأن منه قوت جنسه[٢] وقوتاً لبني آدم والطير فلذلك كان كثيراً ثم أنظر إلى سرعة حركته وإن لم تكن له آلة كغيره من الحيوان وانظر إلى حركة ذنبه وانقسامه وكيف يعتدل بذلك في سيره كما تعتدل السفينة برجلها في سيرها وخلقت أرياشه ألواحاً من جانبيه ليعتدل بهما أيضاً في سيره فهو بمنزلة المركب.

وانظر إلى عظامه كيف خلقت مثل العمد يبني عليها ففي كل موضع منه ما يليق به من صورة العظم المشاكل لذلك العضو فهو كإنشاء المركب يمتد العظم الجافي الذي هو قوته ويخرج من أضلاع إلى مراق البطن والظهر وعظام الرأس يحتاج إليه من الأمر وبه قوامه وانظر إلى ما كان منه كاسراً كيف أعين على نيل قوْته بصلابة اللحم وقوة النهضة وكثرة الأسنان حتى أنه لكثرة أسنانه تكون العضة الواحدة تجزيه عن المضغ.

انظر إلى ما خلق الله في البحر ضعيفاً قليل الحركة مثل أصناف الصدف والحلزوني كيف حفظ بأن خلق عليه ذلك الحصن الذي هو صلب كالرخام ليصونه ويحفظه وجعله له بيتاً وسكناً وجعل ما يلي جسده ناعماً أنعم ما يكون وربما ضربت بعض أصناف الحلزون حتى لا يكون فيه مطمع البتة وأصناف منه خلقت في محائر مفتوحة لا يمكن صيانتها لنفسها لتغلقها ولا يضيق مسلكها فجعل الله لها من الجبال

---

(٢) يقصد أن السّمك الكبير يأكل السمك الصغير الضعيف.

والحجارة مغطاً وجعل لها أسباباً تلتصق بها في الجبل فلا يستطاع إخراجها إلا بغاية الجهد وجعل لها قوتاً من رطوبات الجبل تتأتى حياتها بذلك وأما الحلزون الذي بيته كأنه كوكب فإنه يخرج رأسه يرعى فإذ. أحسّ بما يؤذيه أدخل رأسه في بيته وختم عليه بطابع صلب يقرب من صلابة بيته فيغيب أثره بالجملة.

فانظر هذا اللطف وإن الله لم يهمل شيئاً واعلم أن الله حافظ لما في البحار وما في الآكام والجبال فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

وانظر إلى أنواع من السمك يرعى قرب البر الصغير منها والجافي في الأعماق وقد خلق الله في جوفه صبغاً كأنه حبر وهو يخلق له فيه من فضله غذاءه كما يخلق اللبن في الضرع فإذا أحس بما يؤذيه أخرج من جوفه ما يعكر موضعه ثم يذهب في الماء الذي تغير فلا يعرف كيف ذهب ولا كيف طريقه من تغير الماء فعل الله ذلك له وقاية لنفسه وفعل فيه مصالح أخر لا يعلمها إلا خالقها.

انظر إلى نوع آخر من السمك أعين بأجنحة مثل أجنحة الخفاش ينتقل بها عند وقوع الأنواء من موضع إلى موضع في الهواء من وجه الماء[3] يظهر لمن لا يعرف ذلك أنه من طيور البر. انظر إلى نوع آخر من أنواع السمك ضعيف وكثيراً ما يكون في الأنهار وجعل الله فيه خاصية تصونه إذا اقتربت منه تأخذه وفيه الروح تخدر البدن واليد فيعجز قاصده عن أخذه بذلك السبب فلو ملئت الكتب بعجائب حكم الله في خلق واحد لإمتلأت الكتب وعجز البشر عن استكمالها وما هو المذكور في كل نوع تنبيه إلى أمر عظيم.

(٣) وهناك الدلفين الذي يصعد إلى سطح الماء للتنفّس مرة كل (٤ ـ ٦) دقائق، وحتى إذا كانت نائمة فإنها تتحرك بصورة لا إرادية إلى السطح للتنفّس، ويضطر بعض أنواع الدلافين ـ مثل دلفين «أنف الزجاجة» للتنفس مرة كل ٢٠ ثانية. وهناك أنواع أخر تتمكن من حبس أنفاسها مدة تصل إلى ٣٠ دقيقة أحياناً.



باب
في حكمة خلق النبات
وما فيه من عجائب حكمة الله تعالى

قال الله تعالى:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[(١)].

انظر وفقك الله وسددك إلى ما على وجه الأرض من النبات وما في نظره من النعيم في حسن منظره وبهجته ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر الأرض.

ثم انظر إلى ما جعل الباري فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تحصى وخلق فيه الحب والنوى مخلوقاً لحفظ أنواع النبات وجعل الثمار للغذاء والتفكه والأتبان منها للعلف والرعي والحطب للوقود والأخشاب للعمارة وإنشاء السفن ولغير ذلك من الأعمال التي يطول تعدادها والورق والأزهار والأصول والعروق والفروع والصموغ لضروب المصالح لا تحصى أرأيت لو وجدت الثمار مجموعة من الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق الحاملة لها ما كان يحصل من الخلل في عدم الأخشاب والحطاب والأتبان وسائر المنافع وإن وجد

---

(١) سورة النمل: الآية (٦٠)

راجع: باب في خلق النبات وما فيه من عجائب.

الغذاء بالثمرات والتفكه بها[٢].

ثم انظر ما جعل الله فيها من البركات حتى صارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل والحكمة في زيادتها وبركتها حصول الأقتيات وما فضل ادخر للأمور المهمة والزراعات وذلك في المثال كملك أراد عمارة بلدة فأعطى أهلها من البذور ما يبذرونه وفضله يتقوتون بها إذا أدرك زرعهم.

فهذه هي الحكمة التي عمّ الله بها البلاد وأصلح بها العباد وكذلك الشجرة والنخل تزكو وتتضاعف ثمراتها حتى تكون من الحبة الواحدة الشيء العظيم ليكون فيه ما يأكله العباد ويصرفونه في مآربهم ويفضل ما يدخر ويغرس فيدوم جنسه ويؤمن انقطاعه ولولا نموه وبقاء ما يخلفه لكان ما أصابته جائحة ينقطع فلا يوجد ما يخلف.

تأمل في هذه الحبوب فإنها تخرج في أوعية تشبه الخرائط لتصونها وتحفظها إلى أن تشتد وتستحكم كما تخلق البشيمة على الجنين فأما البزر وما أشبهه من الحبوب فإنه يخرج من قشور صلبة على رؤوسها أمثال الأسنة ليمنع من الطير فانظر كيف حصنت الحيوانات بهذه الحصون وحجبت لئلا يتمكن الطير منها فيصيب بها وإن كان يناله منها قوته إلا أن حاجة الآدمي أشد وأولى. تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فإنها لما كانت محتاجة إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوانات ولم يخلق فيها حركات تنبعث بها ولا آلات توصل إليها غذاءها جعلت أصولها مركوزة[٣] في الأرض لتجذب الماء من الأرض فتغذي بها أصولها وما علا من الأغصان والأوراق والثمار فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت أصولها وعروقها كالأفواه الملتقمة لها وكأنها ترضع لتبلغ منها الغذاء كما ترضع أصناف الحيوان من أمهاتها ألم تر إلى عمد الخيم والفسطاط كيف يمتد بالأطناب من كل جانب ليثبت منصبته فلا يسقط ولا يميل فهكذا أمر النبات كله له عروق منتشرة في

---

(٢) سخّر الله سبحانه كل شيء (من نبات وحيوان وماء) لخدمة الإنسان أفضل مخلوقاته على الأرض وجعل لكل شيء سبب منفعة.

(٣) ثبت بالتجربة العلمية: أننا لو وضعنا نبتة صغيرة في وضع معكوس (الجذر إلى أعلى والساق في الأرض) لشاهدنا أن الجذور تنحني نحو الأرض (موطنها الأصلي). بينما السّاق تنحني وتنمو إلى أعلى. (مجلة الأمة ـ العدد مايو ١٩٨٣).

الأرض ممتدة إلى كل جانب وتمسكه وتقيمه ولولا ذلك لم تثبت الأشجار العالية لا سيما في الرياح العاصفة فانظر إلى حكمة الخالق كيف سبقت حكمة الصناعة واقتدى الناس في أعمالهم بحكمة الله في مصنوعاته.

وتأمل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً عجيباً لو كان مما يصنع بأيدي البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة إلا في مدة طويلة وكان يحتاج فيه إلى آلات وطول علاج فانظر كيف يخرج منه في المدة القليلة ما يملأ السهل والجبال وبقاع الأرض بغير آلة ولا حركة إلا قدرة الباري وإرادته وحكمه.

ثم انظر تلك العروق كيف تتخلل الورق بأسره لتسقيه وتوصل إليه المادة وهي بمنزلة العروق المبثوثة في بدن الإنسان لتوصل الغذاء إلى كل عضو منه وأما ما غلظ من العروق فإنها تمسك الورق بصلابتها وقوتها لئلا يتهتك ويتمزق ثم انظر إلى العجم والنوى والعلة فيه فإنه جعل في جوف الثمرة ليقوم مقامه إذا عدم ما يغرس أو عاقه سبب فصار ذلك الشيء النفيس الذي يخزن في مواضع شتى لعظم الحاجة إليه فإن حدث على الذي في بعض المواضع حادث وجد منه في موضع آخر ثم في صلابته يمسك رخاوة الثمار ورقتها ولولاه لسرحت وسرح الفساد إليها قبل إدراكها وفي بعضها حب يؤكل وينتفع بدهنه ويستعمل في مصالح.

ثم انظر إلى ما خلق الله تعالى فوق النواة من الرطب وفوق العجم من العنبة والهيئة التي تخرج عليها وما في ذلك من الطعم واللذة والإستمتاع للعباد. ثم تأمل خلق الحب والنوى وما أودع فيه من قوة وعجائب كالمودع في الماء الذي يخلق منه الحيوان وهو سر لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه وما علم من ذلك يطول شرحه.

ثم انظر كيف حفظ الحب والنوى بصلابة وخلقت في ظاهره قشرة حتى أنه بسبب ذلك أن سقط في تراب أو غيره لا يفسد سريعاً وإذا ادخر لوقت الزراعة بقي محفوظاً فصار قشره الخارج حافظاً لما في باطنه بمنزلة شيء نفيس عمل له صندوق يحفظه وعندما يوضع في الأرض ويسقي يخرج منه عرق في النوى وغصن في الهواء وكلما ازداد غصناً ازداد عرقاً تتقوى به أصل الشجرة وينصرف الغذاء منه إلى الغصن فهي كذلك إذ يتم غصنها قوتها فتكون الفروع محفوظة عن السقوط بالهوى والإنكسار بالنقل أو بغيره ويصعد الماء في جذرها إلى أعالي الشجرة فيقسمه الله

سبحانه بالقسط وميزان الحق فينصرف للورق غذاء[٤] صالح له وللعروق المشتكة في الأوراق لإتصال الغذاء إلى جوانب الورق ما يليق بغذائها وللثمار غذاء صالح لها وللإقماع واللحا والأزهار غذاء صالح لكل من ذلك ما يليق به ويصلحه فهو كذلك حتى يكمل في الثمار نموها وطعمها ورائحتها وألوانها المختلفة وحلاوتها وطيبها.

ثم انظر كيف جعل الله سبحانه خروج الأوراق سابقاً لخروج الثمار لأن الثمرة ضعيفة عند خروجها تتضرر بحر الشمس وبرد الهواء فكانت الأوراق ساترة لها وصار ما بينها من الفرج لدخول أجزاء من الشمس والهواء لا غنى للثمرة عنها فيحفظها ذلك من المن والعفن وغير ذلك من الفساد.

ثم انظر كيف رتب الباري سبحانه الأشجار والثمار والأزهار وجعلها مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح فأشكالها ما بين طويل وقصير وجليل وحقير وألوانها ما بين أحمر وأبيض وأصفر وأخضر ثم كل لون منها مختلف إلى شديد وصاف ومتوسط وطعومها ما بين حلو وحامض ومر وروائحها إلى عطرات لذيذات مختلفات وقد أوضح الكتاب العزيز من ذلك ما ذكرناه بما يشرح الصدر ويكشف للمتأمل منه كل مستور فانظر ما أودع الباري سبحانه فيها من السر عند النظر إليها فإنها تجلي عن القلوب درنها عند مشاهدتها وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها وأودع الله سبحانه فيها منافع لا تحصى مختلفة التأثير فمنها ما تقوى به القلوب ومنها أغذية تحفظ الحياة وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها وخلق فيها بزوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها انظر وتأمل ما في قوله عز وجل:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَآءَ تَنْبُتُ بِالْدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾[٥].

---

(٤) للأوراق دور كبير في تغذية النبات والحفاظ عليها، فهي تنقل بواسطة عروقها العصارة المغذية للنبات، وفي لونها الأخضر تتكون أكبر عملية كيميائية والتي تعرف (بالتحليل الكلوروفيلي).

(٥) سورة المؤمنون: الآية (٢٠)

يذكر تعالى نعمه على عبيده، وقوله: ﴿**وشجرة تخرج من طور سيناء**﴾ يعني الزيتونة، والطور هو الجبل، وقال بعضهم إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجرة، فإن عري عنها سمي

فاخرج سبحانه فيما بين الحجر والماء زيتاً صافياً لذيذاً نافعاً كما أخرج اللبن من بين فرث ودم ومن أخرج من النحل شراباً عسلاً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس ولو جمعت هذه الأشياء في مستقر لكانت مثل الأنهار وكل ذلك لمنافع العباد فانظر ما فيه من العبرة لذوي الأفكار ثم انظر إلى الماء الصاعد من العروق الراسخة الحافظة للأعلى من الشجرة وكيف قسم الباري في غذاء النخلة فقسم للجذر ما يصلح لها وللجريد وما فيه من السل ما يصلح لها ويناسب جريدها ويرسل للثمرة ما يليق بها، وكذلك الليف الحافظ للأصول مع الثمرة وجعل الثمرة لما كانت ضعيفة في أول أمرها متراصة متراكمة بعضها فوق بعض مجموعة في غلاف متقن يحفظها مما يفسدها ويغيرها حتى إذا قويت صلحت أن تبرز للشمس والهواء فانشق عنها غلافها على التدريج وهو الذي كان حافظاً لها فيصير يفترق شيئاً بعد شيء على قدر ما تتحمله الثمرة من الهواء والشمس حتى تكمل قوتها فتظهر جميعها حتى ما يضر بها ما يلقاها من حر وبرد ثم تراها في النضج والطيب إلى بلوغ الغاية المقصودة منها. فيلتذ حينئذٍ بأكلها ويمكن الإنتفاع بإدخارها وتصرف في المآرب التي هيئت لها اعتبر ذلك في جميع الأشجار فإنك ترى فيها من أسباب الحفظ ولطائف الصنع ما يعتبر به كل ذي فهم ولب. فمن ذلك خلق الرمانة وما فيها من غرائب التدبير فإنك ترى فيها شحماً مركوماً في نواصيها غليظ الأسفل رقيق الأعلا كأمثال التلال في تلوينه أو البناء الذي وسع أسفله للإستقرار ورقق أعلاه حتى صار مرصوفاً رصفاً كأنه منضد بالأيدي بل تعجز الأيدي عن ذلك التداخل الذي نظم حبها في الشحم المذكور. وتراه مقسوماً أقساماً وكل قسم منه مقسوم بلفائف رقيقة منسوجة أعجب نسج وألطفه لتحجب حبها حتى لا يلتقي بعضه ببعض فيفسد ولا يلحق البلوغ والنهاية وعليها قشر غليظ يجمع ذلك كله ومن حكمة هذه الصنعة أن حبها لو كان حشوها منه صرفاً بغير حواجز لم يمد بعضه بعضاً في الغذاء فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء ألا ترى أصول الحب كيف هي مركوزة في ذلك

جبلاً لا طوراً والله أعلم. ﴿وطور سيناء﴾ هو طور سنين، وهو الجبل الي كلّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون وقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾، أي تنبت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان بيده أي يده. ولهذا قال: ﴿وصبغ﴾ أي أدم، قال قتادة ﴿للآكلين﴾ أي فيها ما ينتفع به من الدّهن والإصطباغ، قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزّيت وادهنوا به فإنّه من شجرة مباركة». مختصر ابن كثير.

الشحم ممدودة منه بعروق رقاق توصل إلى الحب غذاءها وإلى كل حبة غذاءها ومن رقها وضعفها لا تكدر على الآكل ولا تعرف بها. ثم انظر ما يصير من الحلاوة في الحب من أصول مرة شديدة المرارة قابضة ثم تلك اللفائف على الحب تمسكه عن الإضطراب ويحفظه ثم حفظ الجميع وغشاه بقشر صلب شديد القبض والمرارة وقاية له من الآفات.

فإن هذا النوع من النبات للعباد به انتفاعات وهو ما بين غذاء ودواء وتدعو الحاجة إليه في غير زمانه الذي يجني فيه من شجره فحفظ على هذه الصفة لذلك. انظر إلى عود الرمانة الذي هي متعلقة به كيف خلق مثبتاً متقناً حتى تستكمل خلقها فلا تسقط قبل بلوغها الغاية المحتاج إليها وهي من الثمرة المختصة بالإنسان دون غيره من الحيوان. انظر إلى النبات الممتد على وجه الأرض مثل البطيخ واليقطين وما أشبه ذلك وما فيه من التدبير فإنه لما كان عود هذا النبات رقيقاً ريان ذا احتياج إلى الماء لا ينبت إلا به جعل ما ينبت به منبسطاً على وجه الأرض فلو كان منتصباً قائماً كغيره من الشجر لما استطاع حمل هذه الثمار مع طراوة عودها ولينها فكانت تسقط قبل بلوغها وبلوغ غايتها فهي تمتد على وجه الأرض لبلوغ الغاية وتحمل الأرض عودها وأصل الشجرة والسقي يمدها.

وانظر هذه الأصناف كيف لا تخلق إلا في الزمن الصالح لها ولمن تناولها فهي له معونة عند الحاجة إليها ولو أتت في زمان البرد لنفرت النفوس عنها ولأضرت بأكثر من يأكلها ثم انظر إلى النخل لما كانت الأنثى منه تحتاج إلى التلقيح فيها الذكر الذي تحتاج إليه لذلك حتى صار الذكر في النخل كأنه الذكر في الحيوان وذلك ليتم خلق ما بزراعته تحفظ أصول هذا النوع.

ثم انظر ما في النبات من العقاقير النافعة البديعة فواحد يغور في البدن فيستخرج الفضلات الغليظة وآخر لإخراج المرة السوداء وآخر للبلغم وآخر للصفراء وآخر لتصريف الريح وآخر لروائحه وآخر للمرضى والضعفاء وكل ذلك من الماء فسبحان من دبر ملكه بأحسن التدبير.

باب
ما تستشعر به القلوب
من العظمة لعلام الغيوب

قال الله العظيم:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٤٤).

يقول تعالى تقدسه السماوات السّبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات وتنزّهه وتعظّمه وتبجّله وتكبّره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالواحدانية في ربوبته وإلَهيته:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

كما قال تعالى: ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هداً، أن دعوا للرحمن ولداً﴾. وقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبّح بحمد الله ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾. أي لا تفهمون تسبيحهم لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات.. وقوله: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾. أي أنه لا يعالج من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره، فإن استمرّ على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر.. مختصر ابن كثير.

(٢) سورة الشورى: الآية (٥).

وقال تعالى :

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾[٣].

اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع ما تقدم ذكره في هذا الكتاب من بدائع الخلق وعجائب الصنع وما ظهر في مخلوقاته من الحكم آيات بينات وبراهين واضحة ودلائل دالات على جلال باريها وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظمته فإنك إذا نظرت إلى ما هو أدنى إليك وهي نفسك رأيت فيها من العجائب والآيات ما سبق التنبيه عليه وأعظم منه ثم أنك إذا نظرت إلى مستقرك وهي الأرض وأجلت فكرك فيها وأطلت النظر في استرسال ذهنك فيما جعل فيها وعليها من جبال شامخات وما أحيط بها من بحار زاخرات وما جرى فيها من الأنهار وما أنبت فيها من أصناف النباتات والأشجار وما بث فيها من الدواب إلى غير ذلك مما يعتبر به أولو الألباب.

ثم إذا نظرت إلى سعتها وبعد أكنافها وعلمت عجز الخلائق عن الإحاطة بجميع جهاتها وأطرافها ثم نظرت فيما ذكرته العلماء من نسبة هذا الخلق العظيم إلى السماء وأن الأرض وما فيها بالنسبة إلى السماء كحلقة ملقاة في أرض فلاة وما ذكره النظار من أن الشمس في قدرها تزيد على قدر الأرض مائة ونيفاً وستين جزء وإن من الكواكب ما يزيد عن الأرض مائة مرة.

ثم أنك ترى هذه النيرات كلها من شمس وقمر ونجوم قد حوتها السموات وهي مركوزة فيها ففكر في السماء الحاوية لهذا القدر العظيم كيف يكون قدرها ثم أنظر كيف ترى الشمس والقمر والنجوم والسماء والجامعة لذلك في حدقة عينيك مع صغرها وبهذا يعرف بعد هذا كله منك وعظم ارتقائه ولأجل البعد ترى هذه النيرات صغيرة في رأى العين ثم انظر إلى عظم حركتها وأنت تحس بها ولا تدركها لبعدها

---

(٣) سورة الرعد: الآية (١٣).

﴿ويسبّح الرعد بحمده﴾ كقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده﴾. وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك. وعن عبد الله بن ابن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث. وقال: سبحان الذي يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض، وروي الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنه لا يصيب ذاكراً» مختصر ابن كثير

ثم أنك لا تشك أن الفلك يسير في لحظة قدر كوكب فيكون سيره في لحظة قدر الأرض مائة مرة وأكثر من ذلك وأنت غافل عن ذلك.

ثم فكر في عظم قدر هذه الأشياء واسمع قسم الرب سبحانه بها في مواضع من الكتاب العزيز فقال عز وجل:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾[٤] * ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾[٥].

وقال:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٦].

إلى غير ذلك من الآيات ثم ترق بنظرك إلى ما حواه العالم العلوي من الملائكة وما فيها من الخلق العظيم وما أخبر به جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن اسرافيل عليه السلام بقول جبريل فكيف لو رأيت اسرافيل وإن العرش لعلى كاهله وإن رجليه لفي تخوم الأرض السفلى وأعظم من هذا كله قوله عز وجل:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[٧].

فما ظنك بمخلوق وسع هذا الأمر العظيم فارفع نظرك إلى باريء الكون

---

(٤) سورة البروج: الآية (١).

(٥) سورة الطارق: الآية (١، ٢، ٣).

(٦) سورة الواقعة: الآيتان (٧٥، ٧٦).

(٧) سورة البقرة: الآية (٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض**﴾. عن ابن عباس قال. علمه. وقال آخرون الكرسي موضع القدمين. عن إبن عباس قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله عز وحل ﴿**وسع كرسيه السموات والأرض**﴾ قال: «كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل». وقال السدي: الكرسي تحت العرش. وقال الصحاك عن ابن عباس: لو أ السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كنّ في سع الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة. قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس» قال، قال أبو ذر. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «م الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة من الأرض. مختصر ابن كثير

العظيم واستدل بهذا الخالق العظيم وعلى جلاله وقدرته وعلمه ونفوذ مشيئته واتقان حكمته في بريته.

وانظر كيف جميع هذا الصنع العظيم ممسوك بغير عمد تقله ولا علائق من فوقه ترفعه وتثبته فمن نظر في ملكوت السموات والأرض ونظر في ذلك بعقله ولبه استفاد بذلك المعرفة بربه والتعظيم لأمره وليس للمتفكرين إلى غير ذلك سبيل وكلما ردد العقل الموفق النظر والتفكر في عجائب الصنع وبدائع الخلق ازداد معرفة ويقيناً وإذعاناً لبارئه وتعظيماً ثم الخلق في ذلك متفاوتون فلكل مثال من ذلك على حسب ما وهبه له من نور العقل ونور الهداية وأعظم شيء موصل إلى هذه الفوائد المشار إليها تلاوة الكتاب العزيز وتفهم ما ورد فيه وتدبر آياته مع ملازمة تقوى الله سبحانه فهذا هو باب المعرفة بالله واليقين بما عند الله.

ثم انظر وتأمل ما نشير إليه فإنك علمت على الجملة أن رسول الله ﷺ أسرى به إلى أن بلغ المنتهى ورأى من آيات ربه الكبرى وأطلع على ملكوت ربه وتحقق أمر الآخرة والأولى ودنى من ربه حتى كان كقاب قوسين أو أدنى فما ظنك بعلم من شرف بهذا المعنى ثم أمر بأن يقول:

﴿وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمَاً﴾[٨].

وعلمك بمعرفته ومنّ عليك بنور هدايته واستعملنا وإياك بطاعته وجعلنا بكرمه أجمعين من أهل ولايته بمنه وكرمه وجوده أنه وليّ ذلك.

تم كتاب الحكمة في مخلوقات الله عز وجل
سبحانه وتعالى والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد النبي
الأمي وعلى آله وصحبه
وسلم

---

(٨) سورة طه: الايه (١١٤)

فهرس الموضوعات

الفهرس










Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)